مخالفة المفردة القرآنية لنمط سوابقها في النظم

دراسة بلاغية

الدكتور

رمضان عاشور أبو زيد محمد

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بجرجا

توطئة وتقديم :

الحمد لله العظيم المنّان ، المتفضل على الإنسان بنعمة الفصاحة والبيان ، والمؤيد لرسوله بالحق والبرهان ، المنزل عليه آيات من الهدى والفرقان ، سبحانه عظم العربية وأعلى من قدرها حين جعلها لغة للقرآن ، وأصلى وأسلم على أفصح الخلق وأعظمهم ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه والمهتدين بهديه ، والمقتدين بسنته إلى يوم الدين .

وبعـــــــــــــــــــــــــــد ،،،،

فإنه من الجرم في حق الأمة العربية وتراثها أن يعتقد الدارس للعربية أن البحث البلاغي الذي يستمد مادته من التراث البلاغي القديم بحث عقيم ، وأكثر منه جرمًا من يسير بغير وعي وراء هذه الدعوات التي تنادي بالتجديد متأثرًا بالفكر الغربي الذي يهدف إلى قطع الصلة بين الأمة الإسلامية وتراثها ؛ لأنه يعلم يقينـاً أن الخير كله في التمسك بهذا التراث .

إن مثل هذه الدعوات تحاول أن تلبس البلاغة العربية أثوابًا مزيفة تفقدها الذوق ، وتبعدها عن الجمال ، وتحيلها إلى فلسفة هدفها قتل الذوق العربي .

فكثير من هذه الدعوات إلى التجديد تحاول تزييف الحقائق ، وذلك بتغيير مصطلحات التراث البلاغي إلى مصطلحات يرونها حديثة ، يبدلون فيها ويحورون ثم يدعون أن ذلك تجديد وإضافة ، وأن ذلك الصنع من بنات أفكارهم ، وأن هو المنهج الذي يجب الأخذ به ، وترك ما عداه .

وليس معنى هذا أنني ضد مسألة التجديد البلاغي ، ولكنني ضد التجديد الذي يريد أن يهدم التراث ، ومع التجديد الذي يستمد أصوله من هذا التراث

العربي ، والذي يتكئ على إشارات العلماء المبثوثة في كتبهم ، ثم يستثمر هذه الإشارات ؛ ليخرج منها بحثاً علميًا يوضح من خلاله أن التراث البلاغي ما زالت كنوزه مخبوءة في ثنايا كلام العلماء تحتاج إلى من يكشف عنها ، ويبرز مكنونها، وما زالت هناك إشارات في كتب التراث البلاغى تحتاج إلى من يجمع شتاتها ، ويخرج منها بموضوع مستقل.

ومن ضمن هذه الإشارات العلمية في كتب التراث البلاغي الإشارة إلى أسلوب المخالفة ، والانتقال من صيغة إلى صيغة أخرى في سياق نظم الكلام الواحد ، وهو أسلوب جعله بن الأثير من شجاعة العربية ، وذلك لأن صاحب هذا الأسلوب كالرجل الشجاع الذي يركب ما لا

يستطيعه غيره ، ويتورد ما لا يتورده سواه [١] ، وهو كما يقول السكاكي " طريق للبلغاء لا يعدلون عنه إذا اقتضى المقام سلوكه "[٢] ، وبعد أن يعرض السكاكي لشواهد هذا الأسلوب يقول : " وأمثال هذه اللطائف لا تتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني "[٣]والعرب كما يقول العلوي: " يرون الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع ، وأكثر لنشاطه ، وأعظم في إصغائه ، وإذا كانوا يحسنون قرى الأضياف وهو دأبهم ، وعليه هجيرهم وعادتهم ، فيخالفون فيه بين لون ولون ، وطعم وطعم ، أفلا

---

[١] ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير : ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محرم ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ٢ / ٣ ، الناشر المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٢٠هـ .

[٢] ـ مفتاح العلوم المؤلف : يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي ، أبو يعقوب ، تحقيق نعيم زرزور ، ١ / ٢٤٧ ، الناشر دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

[٣] ـ المصدر السابق ١ / ٢٤٨ .

يستحسنون نشاط الأفئدة ، وملاءمة القلوب بالمخالفة بين أسلوب وأسلوب ؟ بل يكون هذا أجدر ، فإن اقتدارهم على مخالفة أساليب الكلام أكثر من اقتدارهم على مخالفة الأطعمة ؛ لأن البلاغة في الكلام عليهم أيسر ، وهم عليها أمكن وأقدر " [1]ومع هذه الأهمية لأسلوب المخالفة بين الصيغ داخل النظم ، ومع هذا الإدراك من علماء التراث البلاغي لأهمية هذا الأسلوب إلا أنه لم يأخذ حقه من الدراسة في كتب التراث البلاغي ، فباستثناء إشارات ابن الأثير، والسكاكي، والعلوي لم أجد فيما اطلعت عليه من كتب التراث البلاغي حديثاً مستقلاً يعنى بدراسة هذا الأسلوب ، ويرصد أنواعه ، ويكشف عن أسراره ودقائقه ، فقد وجه البلاغيون اهتمامهم بنوع واحد من هذه المخالفات على تنوعها ، وهي المخالفة بين الضمائر ، والتي درسوها تحت مصطلح الالتفات ، أما باقي المخالفات فإن وجد لها شيء في كتب التراث فهي إشارات عابرة لا تفي بالغرض ، حتى هؤلاء الثلاثة سالفي الذكر الذين أدركوا قيمة هذا الأسلوب ، وبينوا أهميته لم يعطوا هذا الأسلوب في دراسته الأهمية التي وصفوه بها ، ولم يكشفوا عن كل جوانبه وأبعاده ، ولم يدرسوه تحت باب مستقل . فابن الأثير والعلوي خلطا الأمر ، وبدلاً من أن يدرسا الالتفات على أنه نوع من أنواع المخالفات المتعددة في صيغ الألفاظ جعلا كل انتقال من صيغة إلى صيغة أخرى نوعًا من الالتفات ، وهذا مخالف لما عليه جمهور البلاغيين .

---

[1] ـ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، المؤلف : يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم ، الحسيني العلوي ،
٢ / ٧٥ ، الناشر المكتبة العصرية بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ .

أما السكاكي فإن إشارته لهذا الموضوع جاءت عابرة ، وغير مقصودة لذاتها ، فقد جاءت في ثنايا حديثه عن التقييد بأدوات الشرط .

ولأهمية هذا الأسلوب التي أشار إليها العلماء ،وعدم استقلاله بدراسة مستقلة في كتب التراث البلاغي تكشف عن أنواعه وأسراره،ودقائقه ولطائفه كان لا بد من البحث عن دراسة تطبيقية ترصد أنواعه، وتكشف عن مراميه ومقاصده ، وتزيل الستر عن نكاته ولطائفه ، فوجدته في القرآن ظاهرة أسلوبية تلفت الانتباه ، وتستوجب النظر ، فكان هذا الموضوع (**مخالفة المفردة القرآنية لنمط سوابقها في النظم** دراسة بلاغية) ، وقد استخدم علماء البلاغة في إشاراتهم لهذا الأسلوب أكثر من مصطلح ، فتارة يطلقون عليه مخالفة ، وتارة انتقالاً ، وتارة رجوعًا ، إلا أن لفظ المخالفة كان هو الأكثر دورانـاً على ألسنة البلاغيين والمفسرين ، ولذا آثرت هذا اللفظ على غيره في العنوان .

ومنهج البحث يقوم على استقصاء أنواع المخالفة بين صيغ الألفاظ في القرآن الكريم وذلك بوضع عنوان مستقل لكل نوع من المخالفة ، ثم الاستشهاد ببعض الشواهد التي تبرز هذا النوع وتوضحه ، وتكشف عن لطائفه ودقائقه ومقاصده ، وأسباب إيثار المخالفة على سير الكلام على نمط واحد كل ذلك للوصول إلى الهدف المنشود من كل دراسة بلاغية ، وهي إثبات إعجاز النظم القرآني ، وتفرده عن غيره من الأساليب ، وكان تركيزي في التحليل على أسلوب المخالفة دون غيره من الأساليب إلا ما دعت إليه حاجة البحث ، أو كان مرتبطا بأسلوب المخالفة ، وذلك إيمانـاً مني بأن البحث البلاغي يجب أن يكون منصبًا على النكتة الأساسية المقصودة دون إرهاق البحث

بتحليل الأساليب التي لا تمت إلى الموضـــوع بصـــلة ؛ لأن تحليـــل هـــذه الأساليب الخارجة عن موضوع البحث لا يميز الموضوعات بعضـــها عـــن بعض ، ويخرج البحث عن مضمونه وهدفه وقصده .

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في توطئة وتقـــديم وســـبعة مباحـــث تتبعها خاتمة ، وذيل البحث بفهرس للمراجع .

التوطئة والتقديم :

وفيهما عرض لأسلوب المخالفة بين صيغ الألفاظ في كتب التراث البلاغي ، وإشارات العلماء لأهميته ، ومنهج البحث وطريقة السير فيه .

- **المبحث الأول** : المخالفة في صيغ الأفعال .
- **المبحث الثاني** : المخالفة من الاسم إلى الفعل وعكسه .
- **المبحث الثالث** : المخالفة من التنكير إلى التعريف وعكسه .
- **المبحث الرابع** : مخالفة المفردة القرآنية لنمط سوابقها في الإعراب .
- **المبحث الخامس** : المخالفة من الإفراد إلى الجمع وعكسه .
- **المبحث السادس** : المخالفة في حروف المعاني .
- **المبحث السابع** : المخالفة بين الضمائر .

الخاتمـــــــة :

وفيها رصد لأهم النتائج التي توصل إليها البحث . ويأتي فهرس المراجع ليكون أخر الصفحات التي يغلق عليها البحث أبوابه .

هذا وبالله التوفيق

المبحث الأول

المخالفة في صيغ الأفعال :

الناظر في كتب التراث البلاغي باستثناء كتاب المثل السائر لابن الأثير والطراز للعلوي لا يجد حديثاً مبسوطًا أو مستقلاً عن المخالفة في نظم الكلام الواحد من صيغة فعل إلى صيغة فعل آخر كأن يعبر في نظم التركيب الواحد بفعل ماضٍ ثم يعدل بالنظم إلى صيغة المضارع أو العكس ، أو يعبر بصيغة المضارع ثم يخالف التعبير ما قبله ويتحول إلى صيغة الأمر وهكذا ، فما وجد في كتب التراث البلاغي ما هو إلا إشارات عابرة جاءت في سياق الحديث عن موضوع آخر ، كما فعل السكاكي عند حديثه عن تقييد الفعل بأدوات الشرط[١] . أما ابن الأثير فقد كان له السبق في الإفاضة في هذا النوع من الأساليب ، إلا أنه يؤخذ عليه دراسته تحت باب الالتفات ،وهو تارة يسمي المخالفة بين صيغ الأفعال التفاتاً وتارة رجوعًا، وتارة انتقالاً ، يقول: " القسم الثاني في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر ، وهذا القسم كالذي قبله في أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلبًا للتوسع في أساليب الكلام فقط ، بل لأمر وراء ذلك ، وإنما يقصد إليه تعظيمًا لحال من أجري عليه الفعل المستقبل ، وتفخيمًا لأمره،وبالضد من ذلك فيمن أجري عليه فعل الأمر "[٢] .وتحدث

---

[١] ـ ينظر مفتاح العلوم ، ١ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ .
[٢] ـ المثل السائر، ٢ / ١١ .

ابن الأثير ــ أيضـــاً ــ عن عطف المستقبل على الماضي ، وقســـمه إلـــى بلاغي وغير بلاغي فقال : " عطف المستقبل على الماضـــي ينقســـم إلـــى ضربين ، أحدهما بلاغي ، وهو إخبار عن ماضٍ بمستقبل ، وهو الذي أنـــا بصدد ذكره في كتأبي هذا الذي هو موضوع لتفصيل ضروب من الفصـــاحة والبلاغة ، والآخر غير بلاغي وليس إخبارًا بمستقبل عن ماضٍ ، وإنما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماضٍ "[١] .

ولست بصدد مناقشته في هذا التقسيم إلى بلاغي وغير بلاغي ، وإن كان لي فيه وجهة نظر أخرى ، ولكن ما يعنيني هنا هو إشارته إلى هذا النوع مـــن الأساليب ، وسبقه إليه .

وأما العلوي في كتابه الطراز فقد فعل ما فعله ابن الأثير وثار على نهجـــه ، ودرس المخالفة بين صيغ الأفعال تحت مصطلح الالتفات ، وهو يطلق عليه في بعض الأحيان مخالفةً ، وتارةً انتقالاً ، وتارة رجوعًا ، وقد قسمه إلى التفات من الأفعال الخبرية إلى الأفعال الخبرية ، والتفات من الأفعال الخبرية إلى الأفعال الإنشائية [٢] .

وباقي كتب التراث البلاغي ــ باستثناء ما سبق ــ وجهت اهتمامها لدراســـة التعبير بفعلٍ في موضع فعلٍ آخر ، كالتعبير عن الماضـــي فـــي موضـــع المستقبل وعكسه [٣] ، دون أن يكون هذا الفعل مسبوقـــاً بفعـــلٍ أو أفعـــال

---

[١] ـ المصدر نفسه ، ٢ / ١٣ .

[٢] ـ ينظر الطراز ٢ / ٧٣ ـ ٧٤ .

[٣] ـ ينظر الإيضاح في علوم البلاغة ، المؤلف : محمد بن عبد الرحمن بن عمر ، أبو المعالي : جلال الدين القز ويني ، المعروف بخطيب دمشق ، تحقيق :محمد عبد المنعم خفاجي ، ٢ / ٩٦ ، الناشر دار الجيل ـ بيروت الطبعة الثالثة (بدون

أخرى مخالفةً له في الصيغ ، ودون أن يكون معطوفاً على غيره من الأفعال المخالفة له في الصيغة ، فقد ركزوا عنايتهم على الفعل نفسه دون النظر إلى سابقه أو لاحقه في التعبير ، وفرق كبير بين التعبير بفعل في موضع آخر ، وبين مخالفة الفعل لنمط سوابقه في النظم ، فهذا قسم وذاك قسم آخر ، ومن هنا كانت هذه الدراسة التي تعني بهذه المخالفة بين صيغ الأفعال داخل النظم ، وتكشف عن أسرارها ، ولطائفها ، ودقائقها جديرة بالنظر والدراسة ، وحرية بالاهتمام .

ومن المخالفة في صيغ الأفعال في القرآن الكريم قوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ)[١] .

فقد جاءت هذه الآية معطوفة على قوله تعالى : " إن وعد الله حق " وذلك في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) [٢] .

فإذا كانت هذه الآية أكدت أن البعث آت لا محالة فإن هذه الآية محل الشاهد جاءت لتبين بالدليل الملموس المنتزع من الكون قدرة الله ــ عز وجل ــ على إحياء الموتى ، يقول الشيخ سيد قطب " فهذه أدلة الأيمان معروضة في صفحة الكون حيث لا خفاء ولا غموض ، ومن شاء أن يضل فهو يضل عن

تاريخ) ، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، المؤلف : عبد المتعال الصعيدي ، ١ / ١٤٧ الناشر مكتبة الآداب الطبعة السابعة عشر ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

[١] - الآية رقم (٩) سورة فاطر

[٢] - الآية رقم (٥) سورة فاطر

بينة وقد أخذته الحجة من كل جانب ، ومشهد الحياة النابضة بعد الموت حجة ، وفيه دليل على البعث والنشور "[١] .

والمتأمل في صيغ الأفعال التي جاءت في هذه الآية يجدها جاءت هكذا على ترتيبها (أرسل ــ فتثير ــ فسقناه ــ فأحيينا) فالأفعال كلها جاءت بصيغة الماضي عدا الفعل (فتثير) فقد أخذ نمطاً مخالفاً فجاء بصيغة المضارع ولو سار على نمط سابقه من الأفعال لجاء بصيغة الماضي ، فقيل فأثارت سحابا وذلك لأن النظم قبله جاء بصيغة الماضي وذلك في قوله تعالى : (والله الذي أرسل الرياح) وقد خالف النظم القرآني هذا الظاهر مراعاة لمقتضى الحال .

فقد خرج النظم القرآني من سيره على وتيرة واحدة في صيغ الأفعال داخل سياق الآية وخالف بالانتقال من صيغة الماضي (أرسل) إلى صيغة المضارع (فتثير) ؛ لأن المشهد المقصود في الآية هو مشهد إثارة الرياح للسحاب ؛ فإرسال الرياح في هذه الآية ليس مقصودًا لذاته ، وإنما المقصود هو بيان الناتج المترتب عن أثر الإرسال ، وهو هذه الحركة العجيبة للسحاب . فالمخالفة هنا من الفعل قصد منها بيان الأهم والمقصود داخل السياق ، فالتركيز داخل السياق منصب على ما خالف فيه النظم ، وذلك لأن المخالفة من سنن العرب في كلامها يُلجأ إليها لبيان الأهم والمقصود ، وفي هذه المخالفة يقول الزمخشري : " فإن قلت : لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب

---

[١] ـ في ظلال القرآن ، المؤلف : سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي ٥ / ٢٩٢٩ ، الناشر دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، الطبعة السابعة عشر ١٤١٢هـ .

، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحالٍ يستغرب ، أو تهم المخاطب ، أو غير ذلك " [١] .

فالعدول إلى صيغة المضارع لقصد استحضار تلك الصورة العجيبة ، والمشهد المثير الذي يحرك القلوب نحو خالقه ومسيره ، يقول العلامة البيضاوي " (فتثير سحابا) على حكاية الحال الماضية استحضارًا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة ، ولأن المراد بيان إحداثها بهذه الخاصية ، ولذلك أسند إليها "[٢] .

ويقصد البيضاوي بالإسناد هنا إسناد الفعل (تثير) إلى الرياح ، فالفاعل هنا ضمير مستتر تقديره هي يعود على الرياح ، وهذا الإسناد جاء مخالفًا لإسناد الفعل (أرسل) فقد أسند هذا الفعل إلى الله عز وجل ، أما الفعل (تثير) فقد أسند إلى ضمير الرياح لبيان أن المقصود هو هذا المشهد الذي خولف فيه ، وهو إثارة الرياح للسحاب .

واستحضار الصورة من الماضي من دلالات الفعل المضارع التي أشار إليها البلاغيون فصيغة المضارع كما يقول الدكتور أبو موسى : " تحمل الحدث

---

[١] ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، المؤلف : أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري جار الله ، ٣ / ٦٠١ ، الناشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ .

[٢] ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المؤلف : ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي ، ٤ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥ الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ

من قلب الزمان الغابر ؛ لتضعه أمام الحاضر الراهن في جلاءٍ ووضوح ، ولهذا تراهم يؤثرون صيغة المضارع عند ذكر الحدث الأهم "[١] .

ومن ذلك قول الشاعر[٢] :

بأني قد لقيت الغول تهوي بصهب كالصحيفة صحصحان

فاضربها بلا دهش فخرّت صريعـاً لليـــــدين وللجران

يقول ابن الأثير : " فإنه قصد أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها علـى ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها مشاهدة للتعجب من جراءته علـى ذلـك الهول ، ولو قال : فضربتها عطفـاً علـى الأول ، لزالـت هـذه الفائـدة المذكورة "[٣] .

فالشاعر خالف من الماضي إلى المضارع في (فأضربها) لاستحضار تلك الصورة العجيبة ، وكذلك في الآية عُدل من صيغة الماضـي إلـى صـيغة المضارع (فتثير) لأن هذه الحالة التي عبر عنها الفعل المضـارع حالـة عجيبة وغريبة تستدعي التأمل والتدبر من اجل العظة والاعتبار والاعتراف بالقدرة المطلقة لله ــ عز وجل على تصريف الكون .

فهذا الانتقال من الماضي إلى المضارع في الآية قـدم " صـورة السـحاب المثار كأنه حدث يجري مع تلاوة النص ، وهذا أسلوب فنـي بـديع ، فيـه

---

[١] ـ من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) د / محمد محمد أبو موسى ص ١٠١ الطبعة الثانية مكتبة وهبة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٧م .

[٢] ـ ديوان تأبط شرًا ، تحقيق عبد الرحمن المسطاوي ص ٧٥ ، طبعة دار المعرفة ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .

[٣] ـ المثل السائر ٢ / ١٤.

إحضار للمشاهد الماضية ، في صورة المشاهد الحاضرة الجارية ذات الأحداث المتجددة ، إذ المضارع يفيد مع الحدوث الحاضر التجدد والتتابع ، يضاف إلى هذا الغرض التنويع في أسلوب التعبير الذي يستثير الانتباه ويستدعيه بقوة "[١] .

وفي حاشية الشيخ زادة ما يدل على أن المخالفة من الماضي إلى المضارع هنا في هذه الآية أمر اقتضاه ترتيب الأحداث ، وذلك لأن الإثارة خاصية للرياح ، وأثر لا ينفك عنها ، وأنه لا يوجد إلا بعد إيجادها ، وعلى هذا تكون الإثارة أمرًا مستقبلاً بالنسبة للإرسال ، وعلى هذا فاستعمال المضارع في الآية على ظاهره ، وحقيقة من غير تأويل ، لأن المعتبر زمان الحكم لا زمان المتكلم "[٢] .

وما جاء في حاشية شيخ زادة مخالف لما عليه البلاغيون وجمهور المفسرين ، فقد ذكر البلاغيون هذه الآية في شواهد التعبير بالمضارع عن الماضي لاستحضار الصورة[٣] وكذلك اتفق أكثر المفسرين على أن التعبير بالمضارع في الآية لاستحضار الصورة[٤] .

---

[١] ـ البلاغة العربية ، المؤلف : عبد الرحمن بن حسن بن حنبكة الميداني الدمشقي ، ١ / ٥٠٩ ، الناشر : دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م .

[٢] ـ حاشية محي الدين شيخ زادة محمد بن الدين مصطفى القوجوي الحنفي على تفسير القاضي البيضاوي ، تحقيق محمد عبد القادر شاهين ، ٧ / ١٠ ، منشورات : محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .

[٣] ـ ينظر مفتاح العلوم ١ / ١٤٧ ، والإيضاح ٢ / ١٢٧ .

[٤] ـ ينظر الكشاف ٣ / ٦٠١ ، والبيضاوي ٤ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، المؤلف : أبو

ولما كان الغرض من المضارع إعطاء هذا المشهد وهو إثارة الريح للسحاب ميزة ، وخصوصية ، رجع النظم بعد التعبير عن المشهد إلى سيرته الأولى ، فعبر بالفعل الماضي في (فسقناه) ، (فأحيينا) ، وذلك لأن المقصود الأهم في الآية ليس هو ما ترتب من إثارة الرياح للسحاب من إحياء الأرض الميتة ، وإنما المقصود والأهم هو المشهد الذي تفرد بصيغته وذلك في قوله (فتثير سحابا) فقد عدل النظم القرآني من المضارع إلى الماضي مرة أخرى حتى يظل هذا المشهد هو المتميز ، وهو المتفرد في نظمه ، حتى ينتبه السامع إلى هذه المخالفة ، ويتجه تفكيره وتركيزه على تأمل واستحضار هذا المشهد المتفرد في نظمه وصيغته داخل سياق الآية ؛ ولذلك لما لم يقصد من السياق التركيز على مشهد إثارة الرياح للسحاب لم يأخذ الفعل نمطاً مخالفاً وإنما جاء الفعل على نمط سابقه ولاحقه ، ولم يتفرد في صيغته ، وذلك في قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ....)[1] .

ففي هذه الآية جاء الفعل (فتثير) موافقاً لما قبله في صياغته ، وموافقاً لما بعده ؛ لأن الغرض من الآية إظهار المشهد من بدايته إلى نهايته دون التركيز على مرحلة من المراحل . والسر في ذلك هو أن سياق الآيتين مختلف ، فالآية الأولى جاءت للاستدلال على البعث ، وهذا يتناسب معه

السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ، ٧ / ١٤٥ ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت (بدون تاريخ) ،
وحاشية الجمل المسماه بالفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، تأليف العلامة : الشيخ سليمان الجمل ٤ /
٥١٢ ، المطبعة العامرة الشرقية بمصر ، ١٣٣٠هـ .

[1] **- الآية رقم (٤٨) سورة الروم**

حكاية الحدث على أنه ماضٍ ؛ لبيان أن أمر البعث أمر محقق ، وبمنزلة الواقع فعلاً . أما قوله : (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه .. الآية) فقد جاءت في سياق الحديث عن آيات الله ، ودلائل قدرته ، ووحدانيته ، فقد سبقت في نفس السياق بقوله تعالى : (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره)[١] ، فمن أجل ذلك ناسب أن تكون الآية مبنية على صيغة المضارع في كل أفعالها لتظهر هذا الحدث وهو إثارة الرياح للسحاب ، وما يترتب عليه في صورة متجددة من وقت لآخر تدل على عظمة الخالق وقدرته .

ولما كان الغرض من الآية التي جاءت فيها المخالفة هو الاستدلال على البعث ختمت بهذا التشبيه (كذلك النشور) أي مثل هذا الإحياء للأرض الميتة يحي الله الموتى ، ويبعثهم من قبورهم ، وهذا النوع من التشبيهات تفرد به القرآن الكريم ، ولم يعهد في سواه ، ذلك أن الناظر في تشبيهات القرآن يري أداة التشبيه تأتي عقب جمل من الكلام لها معنى قد أدته ، فتدخل أداة التشبيه على اسم الإشارة مشبها به ملحوظاً فيه معاني تلك الجمل ، ويأتي بعد ذلك المشبه مؤخرًا[٢] .

---

[١] ـ من الآية رقم (٤٦) سورة الروم

[٢] ـ خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، دكتور / عبد العظيم المطعني ٢ / ١٩١ ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢م .

ففي هذا النوع من التشبيه يقدم المشبه به ، " ولعل السر في التقديم هنا أن المشبه به لم يستقل به المعنى ؛ لأنه مشار به إلى معاني الجمل التي سبقته فقدم لتقدمها "[١] .

ومن المخالفة في صيغ الأفعال قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)[٢] .

فإنه لما أخبر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة على هذه الآية على قدرته على البعث " دل عليها بما يتكرر مشاهدته من مثلها ، وخص المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخطاب حثاً على تأمل هذا الدليل تنبيهاً على عظمته "[٣] .

فالاستفهام الذي جاء في مطلع الآية غرضه التقرير بهذه الحقيقة الكونية ، فهو استفهام خارج عن حقيقته .

وقد بدأت مراحل نمو النبات في الآية بنزول المطر من السماء ، وقد جاء الفعل في هذه المرحلة بصيغة الماضي فقيل (أنزل من السماء ماءً) ، ثم جاءت المرحلة الثانية أيضاً على نفس النمط فقيل (فسلكه ينابيع) ، أما باقي المراحل فقد أخذ فيها الفعل نمطاً مخالفاً ، فجاءت الأفعال مخالفة لما قبلها هكذا (ثم يخرج به زرعاً) ، (ثم يهيج) ، (ثم يجعله حطاماً

١ـ المصدر نفسه ٢ / ٢٩١ .

٢ـ الآية رقم (٢١) سورة الزمر .

٣ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ١٦ / ٤٨٣ ، طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة (بدون تاريخ) .

) ؛ ففي هذه المراحل عدل النظم من الماضي إلى صيغة المضارع ، فأخذ نمطاً مغايرًا ، والسر في هذا الاختلاف ، والعدول بالصيغة نحو المضارعية ، هو الاهتمام ، والعناية ، ولفت الأنظار إلى تلك المراحل التي خولف في نظمها ، وذلك لأن المقام الذي عرضت فيه الآية هو مقام التزهيد في الدنيا ، والتحذير من الاغترار بها ، ومن هنا كانت أهم المراحل في هذه الآية هي مرحلة الزوال التي عبر عنها النظم في قوله (ثم يكون حطاماً).

ولما كانت هذه المرحلة المقصودة لذاتها داخل سياق الآية لا تأتي إلا بعد مرحلتين مرحلة الاخضرار والجمال ، ومرحلة الذبول والاصفرار، أخذت هاتان المرحلتان حيزًا من الاهتمام والتركيز داخل الآية فخولف في نظمهما ، وعبر عنهما بصيغة المضارع ، لكي يعرف الإنسان أن زخرف الدنيا الذي تمثله مرحلة اخضرار النبات وجماله شيء وقتي زائل . ففي العدول إلى المضارع استحضار لتلك الصورة الوقتية البديعة التي قد تغر الإنسان ، وتجعله يتمسك بجمالها ، ويتشبث بزينتها .

وقد آثر النظم القرآني هنا في هذا المقام : مقام التزهيد في الدنيا استحضار صورة إخراج الزرع " لأن إخراج الزرع من الأرض بعد إقحامها أوقع في نفوس الناس ؛ لأنه أقرب لأبصارهم ، وأنفع لعيشتهم ، وإذ هو المقصود من المطر"[١] ، فالعدول إلى المضارع في هذه المرحلة استحضار لهذا المنظر الخلاب الذي يدعوا إلى التأمل والتدبر ، ويجعل العظة عند الاصفرار والزوال الذي هو المقصود الأول والأهم في مقام التزهيد في الدنيا أعظم ؛

---

[١] ـ التحرير والتنوير للشيخ / محمد الطاهر بن عاشور ٢٣ / ٣٧٧ طبعة الدار التونسية للنشر ـ تونس ١٩٨٤م .

لأن السامع سيضع أمام عينيه صـــورتين ، صـــورة البهجـــة والنضـــارة ، والخضرة والجمال التي يحملها الفعل المضارع في قوله (ثـــم يخـــرج بـــه زرعـــاً) ، وصورة أخرى يتحول فيها هذا الجمال إلى اصفرار وذبـــول ، يهيئ المنظر كله إلى الزوال ، يقول صاحب إعراب القرآن وبيانـــه مشـــيرًا إلى هذه المخالفة " (ويخرج) فعل مضارع ، والعدول إليه من الماضي كما يقتضيه أسلوب العطف ، لاستحضار الصورة "[١] .

وكذلك جاء التعبير بالمضارع في (ثم يهيج فتراه مصفرًا) للاهتمـــام بهـــذا المشهد ، لأنه هو المشهد الذي يهيئ النبات إلى المرحلة الأهم ، والمقصودة بذاتها ، وهي مرحلة الزوال ، فإن الزوال لا بد أن يسبق بمرض وضعف ، هذا المرض والضعف اللذان تمثلهما مرحلة الذبول والاصفرار . ثـــم تـــأتي المرحلة المقصودة من كل المراحل السابقة وهي مرحلة الزوال ، والتي جاء المضارع ليحمل صورتها ، وينقلها وكأنها مشاهدة للسامع وذلك في قولـــه (ثم يجعله حطامـــاً) .

هكذا فإن التعبير عن مراحل النبات قد أخذ صيغـــاً مختلفة ، فقد عدل النظم من قوله : (ثم يخرج به زرعـــاً) إلى صيغة المضارع للفت الأنظار إلـــى هذه المشاهد التي أخذت نمطـــاً مخالفـــاً ، وبيان أهميتها ، وإعطائها ميـــزة وخصوصية داخل النظم . فليس إنزال المطر وتوزيعه هو المشهد المقصود لذاته ، وإنما المقصود هو مشهد النبات من بداية نمـــوه واخضـــراره إلـــى

---

[١] ـ إعراب القرآن وبيانه ، تأليف : محي الدين بن أحمد مصطفى درويش ٨ / ٤٠٧ ، دار الإرشاد للشئون الجامعية ـ حمص سوريه ، دار اليمامة ـ دمشق ـ بيروت ، دار بن كثير ـ دمشق ـ بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤١٥ هـ .

صفرته وزواله ، وهو مشهد يمثل حال الدنيا ويحذر من الاغترار بها ويبين أنها مهما تزينت ومهما أوتي الإنسان من زخرفها ، فإن مآلها إلى الزوال .هكذا فإن المخالفة أدت ما قصد منها داخل المقام والسياق على أكمل الوجوه وأحسنها .

وتلحظ دقة النظم القرآني في استخدامه لحروف العطف والمخالفة بينها داخل السياق فقد استخدمت (ثم) في المراحل التي تحتاج إلى وقت والتي يفصل بينها مدة زمنية فقال : (ثم يخرج به زرعاً) ، (ثم يهيج) ، (ثم يجعله حطاماً) ، واستخدمت الفاء في المراحل المتعاقبة ، والتي لا تحتاج إلى مدة زمنية طويلة فقيل : (أنزل من السماء ماءً فسلكه) ، (يهيج فتراه مصفرًا) ، والسر في هذه المخالفة بين الفاء وثم هو أن الفاء " توجب أن الثاني بعد الأول ، وأن الأمر بينهما قريب ، فهي تجيء لتقدم الأول ، واتصال الثاني فيه " [١] ، وثم تفيد الترتيب مع الوقت[٢] ، وهنا تظهر دقة النظم القرآني في المخالفة والعدول من صيغة إلى أخرى سواء كان ذلك في الأفعال أو الحروف .

---

[١] ـ الأصول في النحو : لأبي بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بن السراج تحقيق : عبد الحسين الفتلي ٢ / ٥٥ (بتصرف) ـ مؤسسة الرسالة ـ لبنان ـ بيروت .

[٢] ـ ينظر همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، المؤلف :عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، تحقيق :عبد الحميد هنداوي ٣ / ١٥٥ ، الناشر : المكتبة التوفيقية ـ مصر .

ومن ذلك ــ أيضــاً ــ قوله تعالى : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّــهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)[١] .

فهذه الآية جاءت استئنافــاً بيانيــاً لقوله تعالى : (ما كــان للمشــركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمــالهم وفــي النار هم خالدون)[٢] ؛ لأن هذه الآية تثير سؤالاً في نفس سامعها مــؤداه إذا كان هذا هو الحال بالنسبة للمشركين فمن له الحق في إعمار المساجد ؟ فجاء الجواب في قوله : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخــر وأقــام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله .....الخ) والآية قائمة على أســلوب القصر ، فقد قصرت عمارة المساجد على هؤلاء المذكورين في قوله : (من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) والقصر في الآية من قبيل قصر الصفة على الموصــوف قصــرًا حقيقيــاً ، وقــد استخدمت (إنما) في القصر هنا للتعريض بغير المذكورين في الآيــة مــن المشركين وغيرهم بأنهم ليسوا من عمار المساجد ، يقول الطاهر ابن عاشور " ومجيء صيغة القصر مؤذن بأن المقصود إقصاء فــرق أخــرى عــن أن يعمروا مساجد الله غير المشركين الذين كان إقصاؤهم بالصريح ، فتعين أن يكون المراد من الموصول وصــلته خصــوص المســلمين ؛ لأن مجمــوع الصفات المذكورة في الصلة لا تثبت لغيرهم "[٣] .

---

[١] ـالآية رقم (١٨) سورة التوبة .
[٢] ـ الآية رقم (١٧) سورة التوبة .
[٣] ـ التحرير والتنوير ١٠ / ١٤١ .

وفي مثل هذا التعريض المستفاد من (إنما) يقول الإمام عبد القاهر " ثم اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب ، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه "[١] .

وإذا كان أسلوب القصر قصر عمارة المساجد على أصحاب هذه الأفعال (من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) فإن أسلوب المخالفة في صيغ الأفعال في المقصور عليه جاء ليؤاذر أسلوب القصر في بيان أهم الصفات التي تميز عمارة المساجد ، وتؤدي إلى عمارتها ، فقد اتخذت الأفعال (آمن ، أقام ، أتى) صيغة الماضي للدلالة على تحقق هذه الأفعال واستقرارها وثبوتها ، وخالف الفعل الدال على الخشية ما قبله في الصيغة والنمط ، فقد جاء الفعل بصيغة المضارع المنفي ، ولبس ثوب القصر ، فقيل : (ولم يخش إلا الله) ولو لبس الفعل ثوب ما قبله ، وجرى على نسق الأفعال السابقة عليه لجاء هكذا : وخشي الله ، ولكن النظم القرآني آثر المخالفة إظهارًا لأهمية الخشية في عمارة المساجد ، وتأكيدًا لدورها الفعال والمؤثر في هذه العمارة ، ولفتًا للانتباه إليها ، وإظهار خصوصيتها وميزتها عن باقي الصفات الواردة في الآية ، فالإيمان بالله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة أمور مترتبة على الخشية من الله عز وجل .

---

[١] ـ دلائل الإعجاز ، المؤلف : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل ، الجرجاني الدار ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ١ / ٣٥٤ الناشر : مطبعة المدني بالقاهرة ـ دار المدني بجده ، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

والملاحظ أن الآية بدأت بالمضارع (يعمر) ثم انتقلت إلى الماضي في (آمن ، أقام ، أتي) ثم عاد السياق إلى المضارع في (ولم يخش إلا الله) ولعل هذا يكشف عن العلاقة القوية بين عمارة المساجد والخشية من الله ، فالخشية من الله ــ عز وجل ــ هي الأصل وهي الأساس وهي الدافع لكل الأعمال التي يراد بها التقرب إلى الله عز و جل . فالصلاة وإن لم يكن دافعها الخشية خرجت من باب الإخلاص إلى باب الرياء ، وخرج صاحبها من القصر المذكور في الآية ولم يكن من عمارة المساجد وكذلك الزكاة ، وجميع العبادات ، ومن هنا أخذت الخشية نمطا مخالفاً لما جاء عليه النظم قبلها إبرازًا لأهميتها واعتناءً بأمرها وشأنها .

وفي المخالفة والانتقال من المضارع إلى الماضي في مطلع الآية ، ثم من الماضي إلى المضارع في ختامها إشارة إلى أن أعمال هؤلاء الموصوفين في تذييل الآية بأنهم من المهتدين دائرة بين التجدد والثبات ، فهي أعمال دائمة وثابتة ومتجددة لا يتخللها الفتور أو الملل ، وإنما هي تتجدد بتجدد الخشية من الله عز وجل .

فالعلاقة بين عمارة المساجد والخشية من الله هي علاقة الشيء بسببه ، فالخشية هي السبب الأول في عمارة المساجد ، وهي السبب في كل الصفات المذكورة في الآية من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ولذلك خالفت في صفتها ما قبلها من الأفعال .

وزيادة في الاهتمام بأمر الخشية جاءت الخشية في سياق القصر ، ففعل الخشية هو المقصور مع الفعل والاستثناء ، وجزء من المقصور عليه مع (إنما) ، فقد جاء القصر بإنما في قوله تعالى : (إنما يعمر مساجد الله)

لقصر عمارة المساجد على المؤمنين المتصفين بالصفات الواردة في الآية ، والتي منها قصر الخشية على الله عز وجل . وجاء القصر بالنفي والاستثناء في (ولم يخش إلا الله) ليؤكد مع أسلوب المخالفة في صيغة الفعل (يخش) أن الخشية من الله وحده هي أساس عمارة المساجد ، وأساس كل الأعمال المذكورة في الآية .

وهكذا فإنه قد اجتمع أسلوبان من أساليب القصر داخل سياق الآية وهما متآزران مع أسلوب المخالفة في صيغ الأفعال في تأكيد وإبراز أهمية الخشية من الله ــ عز وجل ــ في عمارة المساجد . هذا بالإضافة إلى ما ساهمت به (إنما) من تعريض مؤداه أن الذي لا تتحقق فيه هذه الصفات المذكورة في المقصور عليه وهي الإيمان بالله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والخشية من الله فليس من جنس المهتدين ، لأنه إذا كان هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الحسنة في الآية لم يجزم بهدايتهم ، وإنما جاء التعبير عن هدايتهم بعسى ، فقيل : (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وعسى تفيد الرجاء ، فما بالك بغيرهم ممن لم تتوفر فيهم هذه الصفات .

ومن ذلك ــ أيضاً ــ قوله تعالى : (قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)[١] .

---

[١] ـ الآيتان رقم (٧١ ، ٧٢) سورة الأنعام .

يقول الرازي في قوله تعالى : (قل أندعوا .....الآية) " اعلم أن المقصود من هذه الآية الرد على عبدة الأصنام ، وهي مؤكدة لقوله تعالى قبل ذلك : (قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) فقال : (قل أندعوا من دون الله) أي أنعبد من دون الله النافع الضار ما لا يقدر على نفعنا ولا ضرنا ونرد على أعقابنا راجعين إلى الشرك بعد أن أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام ؟ " [١] .

ولما كان الغرض هنا هو الرد على عبدة الأصنام كان الاستفهام في قوله : (أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا) للتوبيخ والإنكار . ولما كان الرجوع إلى الشرك أمرًا يدل على عدم الاتزان ، ويؤدي إلى الهلاك المحقق جاء التشبيه في قوله : (كالذي استهوته الشياطين في الأرض) ليصور شناعة هذا الأمر وخطورته ، ويصور الحيرة في أقوى صورها وينقلها في أبهى عروضها ، ولذا يقول الرازي في بلاغة هذا التشبيه : " واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن ، وذلك لأن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه ؛ لأن الحجر حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة ، وذلك يوجب كمال التردد والتحير ، وأيضاً عند نزوله لا يعرف انه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه ، أو يقل ، فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالاً للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال " [٢] .

---

[١] ـ مفاتيح الغيب للإمام / فخر الرازي فخر الدين بن العلامة ضياء الدين بن عمر ١٣ / ٢١ ، طبعة دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

[٢] ـ المصدر نفسه ١٣ / ٢١ ـ ٢٢ .

وقد أخذ النظم في قوله (لنسلم لرب العالمين * وان أقيموا الصلاة) نمطـاً خاصـاً لا يهتدى إلى المعنى فيه إلا بالتأويل ، فقد جاء الفعـل (لنسـلم) بصيغة المضارع ، وظاهر اللفظ والنظم كـان يقتضـي أن يـأتي الفعـل المعطوف عليه بالمضارع ــ فيقال : ونقيم الصلاة ، ولكن النظم سلك هـذا المسلك في الآية ، فعدل من الفعل المضارع إلى الأمر فقيل : (وأن أقيمـوا الصلاة) وبذلك تحول الأسلوب من صيغة الخبر إلى صيغة الإنشاء . وقـد ذكر الزجاج في توجيه العطف بين الأمر والمضارع هنا ثلاثة أوجه يقول : " وقوله عز وجل : (وان أقيموا الصلاة واتقوه) فيه وجهان أحـدهما : أن تكون أمرنا لأن نسلم ، ولأن نقيم الصلاة ، ويجوز أن يكون محمولاً علـى المعنى ، لأن المعنى أمرنا بالإسلام وبإقامـة الصـلاة "[١] . وهـذه كلهـا توجيهات نحوية ، ولكن ما اللطيفة البلاغيـة وراء هـذا العـدول ، وتلـك المخالفة من المضارع إلى الأمر ، ومن الخبر إلى الإنشاء ؟ أرى أن سـر هذا التحول في سير النظم هو الاهتمام بأمر الصلاة ، والتحذير من التهاون فيها ، وحتى لا يظن الإنسان أن مجرد الـدخول فـي الإسـلام ، والنطـق بالشهادتين كافٍ في تحقيق المطلوب من المسلم ، بل لا بـد مـن اقتـران الإسلام بالأعمال الصالحة التي من أهمها وأعظمها إقامة الصلاة.

فلهذه الأهمية للصلاة في الإسلام ، ركز عليها النظم في الآية ، وأبرز هـذه الخصوصية ، وهذا التميز لهذا الركن من أركان الإسلام عن طريق المخالفة في النظم ، والعدول من الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي في قوله :

---

[١] **ـ معاني القرآن وإعرابه ، المؤلف : إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج ٢ / ٢٦٣ ، الناشر : عالم الكتب ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .**

(وأمرنا لنسلم لرب العالمين * وأن أقيموا الصلاة) وذلك لما في أسلوب الأمر من الحزم والشدة والتحذير من التهاون في الأمر . وفي هذا العدول من الفعل المضارع إلى فعل الأمر علة أخرى ، وهو أن الإنسان قبل الدخول في الإسلام خوطب مخاطبة البعيد فقيل : (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) فإذا أسلم وطولب بإقامة أركان الدين التي من أهمها الصلاة خوطب بصيغة الأمر للدلالة على قربه ، وفي ذلك يقول صاحب اللباب : " ما الحكمة في العدول عن هذا اللفظ الظاهر ، والتركيب الموافق للفعل إلى ذلك اللفظ الذي لا يهتدي العقل إلى معناه إلا بالتأويل ؟ فالجواب : لأن الكافر ما دام يبقى على كفره كان كالغائب الأجنبي ، فلا جرم خوطب بخطاب الغائبين ، فيقال له : (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) فإذا أسلم وآمن ودخل في الإيمان صار كالقريب الحاضر ، فلا جرم خوطب بخطاب الحاضرين ، ويقال له : (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) فالمقصود من هذين النوعين من الخطاب التنبيه على الفرق بين حالتي الكفر والإيمان وتقريره ، أن الكافر بعيد غائب ، والمؤمن قريب حاضر "[١] .

ومن ذلك ــ أيضاً ــ قوله تعالى : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٢] .

---

[١] **ـ اللباب في علوم الكتاب ، المؤلف : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد عوض ٨ / ٢٢٢ ، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٨٩م .**

[٢] **ـ الآية رقم (٥٤) سورة هود**

فهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن قصة هود ــ عليه السلام ــ مع قومه ، وفي الآية اتهام موجه من القوم إلى نبيهم وذلك في قولهم الذي يحكيه القرآن عنهم (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) وقد تناسب التنكير في كلمة (بسوء) مع التعبير بكلمة (بعض) المضافة إلي آلهتهم ، وذلك لأن هذا التنكير يفيد التقليل ؛ لأن هذا السوء من وجهة نظرهم ليس من كل الآلهة وإنما هو من بعضها ، وهو وهم أرادوا أن يقنعوا به أنفسهم . وهذا الاتهام لهود ــ عليه السلام ــ يحرك السامع إلى معرفة جوابه لهم ، فجاء قوله : (إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون) جواباً لهذا الاتهام ، فهذا استئناف بياني جاء جواباً لسؤال يثيره الكلام السابق مؤداه فماذا قال لهم ؟.

وقد جاء قوله : (واشهدوا أني بريء مما تشركون) مخالفاً لما يقتضيه ظاهر النظم ، وذلك لأن قوله : (إني أشهد الله) جاء بصيغة الخبر وكان مقتضى الظاهر أن يقال : أشهد الله وأشهدكم ، وإنما عدل النظم من الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي المتمثل في فعل الأمر في : (واشهدوا أني بريء مما تشركون) إظهارًا للمخالفة بين الشهادتين : شهادة الله عز وجل ، وشهادة قوم هود عليه السلام فشهادة الله هي شهادة الملك الأعظم ، وفرق كبير وشاسع بين شهادة الملك القاهر فوق عباده ، وبين شهادة قوم يكفرون بالله ، ويتهمون نبيهم بما لا يليق به . ففرق بين الشهادتين " لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد ، وشد

معاقدة ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب "[١] .

وإلى هذه المخلفة يشير البقاعي فيقول " وعدل أدبًا من الله عن أن يقول وأشهدكم ؛ ــ لئلا يتوهم تسوية ــ إلى صيغة الأمر تهاوناً بهم فقال : (واشهدوا) أي أنتم لتقوم الحجة عليكم لأيكم ،ويبين عجزكم ويعرف كل أحد أنكم بحيث يتهاون بكم وبدينكم ولا يبالي بكم ولا به"[٢] .

هذا وقد رأى العلامة ابن عاشور أن قوله (أشهد الله) إنشاء في صيغة الخبر ، وأن السر في العدول إلى الأمر في قوله : (واشهدوا) هو إنشاء الإشهاد دون أن يشتم فيه رائحة الخبر ، يقول الطاهر بن عاشور " وجملة (أشهد الله) إنشاء لإشهاد الله بصيغة الإخبار ، لأن كل إنشاء لا يظهر أثره في الخلق من شأنه أن يقع بصيغة الخبر ؛ لما في الخبر من قصد إعلام السامع بما يضمره المتكلم ، ولذلك كان معنى صيغ العقود إنشاء بلفظ الخبر ، ....وأتى في إشهادهم بصيغة الأمر لأنه أراد مزاجة إنشاء الإشهاد دون رائحة معنى الإخبار"[٣] .

وأرى أن الأولى مما قاله ابن عاشور في سر المخالفة هنا من المضارع إلى الأمر هو عدم التسوية بين الشهادتين ، وإظهار الفرق بينهما والتأدب من هود ــ عليه السلام ــ الذي لم يرد أن يسوي بين شهادة الله ــ عز وجل ــ وشهادة قومه الذين يكفرون بالله .

---

[١] ـ الكشاف ٢ / ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .
[٢] نظم الدرر ٩ / ٣١٠ .
[٣] ـ التحرير والتنوير ١٢ / ٩٩ (بتصرف) .

ومن هنا فإن المخالفة في الآية جاءت مقصودة ، ومؤدية لغرض ، وحاملـــة لطيفة بلاغية لا يؤديها نسق الكلام إذا جاء موافقـــاً لمقتضى ظاهره .

المبحث الثاني

المخالفة من الاسم إلى الفعل وعكسه :

على الرغم من أن علماء البلاغة أفاضوا في الحديث عن أسرار التعبير بالجملة الاسمية ، وأسرار التعبير بالجملة الفعلية ، وبينوا أن الجملة الفعلية تدل على التجدد ، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام [١] ، إلا أنني لم أجد لهم ــ فيما قرأت ــ حديثاً عن أسرار الانتقال من الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية أو العكس داخل التركيب الواحد . فقد يعبر بالصيغة الفعلية ، ثم يعدل النظم في التركيب نفسه ويخالف إلى الصيغة الاسمية ، وقد يحدث العكس ، وقد تسيطر الصيغة الفعلية على التركيب كله ، ثم يخالف في صيغة واحدة ، ويعدل بها إلى الاسمية ، أو تسيطر الصيغ الاسمية ثم يخالف النظم في إحدى الصيغ ،ويعدل بها إلى الفعلية،وكل ذلك لأسرار ونكات بلاغية مقصودة داخل النظم القرآني .

فهذا النوع من المخالفة لم يأخذ حظه من الدراسة في كتب البلاغة العربية كما أخذته دراسة الجملة الفعلية منفصلة وكذلك الاسمية .

وإحقاقاً للحق فإن هذا النوع من الأساليب قد أخذ جهودًا كبيرة من المفسرين ، فلهم في توجيهاته آراء قيمة ، وتوجيهات سديدة وهذا ما سيتضح من خلال الدراسة .

---

[١] ـ ينظر دلائل الإعجاز ص ١٧٤ ، وشروح التلخيص ، ص ١٠٧ ، طبعة دار البصائر ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .

أولاً : المخالفة من الاسم إلى الفعل .

قال تعالى :(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[١] .

فقد بينت الآية السابقة على هذه الآية أن الكفار قد حرموا الطيبات التي أحلها الله تعالى ، وذلك في قوله : (قل من حرم زينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون)[٢] ، وجاءت هذه الآية لتبين ما حرم الله ــ عز وجل ــ حقاً ، وفي هذا يقول الثعالبي : " لما تقدم إنكار ما حرمه الكفار بآرائهم أتبعه بذكر ما حرم الله عز وجل "[٣] .

وفي التعبير (بإنما) تعريض بأنهم قد التبس عليهم الأمر ، فحرموا الحلال الطيب ، وأحلوا الخبائث التي حرمها الله ، وفي هذا تقبيح لأمرهم ، وإظهار لغبائهم ، وقلبهم الحقائق ، وحملهم الأشياء على عكس طبيعتها .

والمتأمل في نظم الآية يجد أن المحرمات التي ذكرت قبل الشرك جاءت بصيغة الاسم هكذا (الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير

---

[١] ـ الآية رقم (٣٣) سورة الأعراف .

[٢] ـ الآية رقم (٣٢) سورة الأعراف .

[٣] ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، تحقيق الشيخ : محمد علي معوض ، والشيخ : عادل أحمد عبد الموجود ٣ / ٢٦ طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .

الحق) ، أما عند الشرك بالله فقد أخذ النظم نمطـاً مخالفـاً ، وعـدل مـن الاسم إلى صيغة الفعل المضارع المسبوق بـأن المصـدرية ، فقيـل (وأن تشركوا بالله) ، وكان مقتضى العطف أن يقال ، والشرك بالله تناسبـاً مـع الفواحش ، والإثم ، والبغي ، فقد جاءت هذه الألفاظ السابقة بصيغة الاسـم ، إلا أن النظم القرآني آثر الصيغة الفعلية في التعبير عن الشرك. وفـي هـذا العدول والمخالفة من الاسم إلى الفعل إظهار لخطورة هذا الأمر ، وشناعته ، وذلك لأنه أكبر الكبائر ، فمهما ارتكب الإنسان من المعاصـي والـذنوب ، يمكن أن يغفرها الله عز وجل ، ويتجاوز عنها ، أما الشرك فصاحبه مخلـد في النار ، وليس له من الله مغفرة ، قال تعـالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)[1] وقال تعالى : (قُلْ يَا عِبَـادِيَ الَّـذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًـا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[2] .

فالنظم القرآني بهذه المخالفة في الصيغة يشير إلى المخالفة فـي الجـرم ، والذنب ، فالشرك وإن كان داخلاً فيما قبله في الحرمة إلا أنه يخالف ما قبله في الحكم ، والخطورة ، وعظم الجرم ، فالإنسان مهما بعد عن ارتكاب مـا ذكر من المحرمات في الآية ، ومهما عمل من الأعمال الصالحة في الـدنيا فإن ذلك كله لا يفيده ولا يدفع عنه العذاب يوم القيامة طالمـا هـو متلـبس بالشرك ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَـبُهُ

---

[1] ـ من الآية رقم (٤٨) سورة النساء .
[2] ـ الآية رقم (٥٣) سورة الزمر .

الظَّمْآَنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[١] .

إذا لما كان الشرك بالله من أكبر الكبائر ، وأعظمها جرماً ، وأن ترك غيره من المحرمات لا يجدي معه ، ولا ينفع صاحبه خالف النظم في الصيغة الدالة على الشرك ، وآثر العدول من الصيغة الاسمية إلى الصيغة الفعلية .

هذا وقد لمح أبو هلال العسكري الفرق بين التعبير بالفعل مع أن في (أن يشرك به) وبين التعبير بالمصدر ، وذلك في قوله : " الفرق بين قوله (لا يغفر أن يشرك به) وقوله : لا يغفر الشرك به في ما قال على بن عيسى (أن) لا تدل على الاستقبال ، وتدل على وجه الفعل في الإرادة ونحوها إذا كان قد يريد الإنسان الكفر مع التوهم أنه إيمان . كما يريد النصراني عبادة المسيح ، وبحوز إرادته أن يكفر مع التوهم أنه إيمان ، والفرق من جهة أخرى ، أن المصدر لا يدل على زمان وأن الفعل يدل على زمان ، ففي قولك : أن مع الفعل زيادة ليست في الفعل "[٢] .

ومن هنا عدل النظم القرآني وخالف ، وانتقل من صيغة الاسم إلى التعبير بأن والفعل ، لما في هذه المخالفة من الزيادة التي لا يؤديها التعبير بالمصدر .

---

[١] ـ الآية رقم (٣٩) سورة النور .

[٢] ـ الفروق اللغوية ، المؤلف : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران العسكري ، تحقيق : محمد إبراهيم مسلم ١ / ٣٠٩ الناشر : دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ مصر بدون (تاريخ) .

كما أن إيثار المخالفة والعدول من الصيغة الاسمية إلى الصيغة الفعلية المتجهة نحو المضارع دلالة على أن الاستمرار في الشرك هو الذي ينتظر صاحبه العذاب الشديد من الله عز وجل ، وهو الذي يخلد صاحبه في النار ، أما إذا رجع المشرك إلى ربه وتاب عن شركه ، وأسلم وجهه لله ، وأقر بوحدانيته فإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يغفر له ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله.

ومن المخالفة من الاسم إلى الفعل قوله تعالى : (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)[1] .

فهذه الآية جاءت لبيان صفات المخبتين الذين أمر الله بتبشيرهم في قوله : (وبشر المخبتين) ، فمن صفاتهم المذكورة في الآية الصبر ، وقد جاء بصيغة اسم الفاعل فقيل : (والصابرين) وكذلك الوصف بإقامة الصلاة جاء بصيغة اسم الفاعل فقيل : (والمقيمي الصلاة) ، أما الوصف بالإنفاق فقد أخذ نسقاً آخر ، وخالف ما قبله في النظم فجاء بصيغة المضارع (ينفقون) وقدم مفعوله عليه . ، وفي المخالفة في النظم اهتمام بشأن الإنفاق ، واعتناء بأمره فمن أجل هذه العناية ، وذلك الاهتمام ، أخذ الإنفاق نمطاً مغايرًا لما قبله في نظمه ، وقدم عليه متعلقه ، وأضيف الفعل المتعلق به إلى ضمير المولى عز وجل ، فقيل : (رزقناهم) ، وكل هذه المغايرة في النظم جاءت مقصودة لأداء لطيفة بلاغية لا تؤدى بسير النظم على نسق ما قبله .

---

[1] - الآية رقم (٣٥) سورة الحج .

ففي إسناد فعل الرزق إلى ضمير المولى عز وجل ، وجعل مفعوله ضـــمير الذين يؤمنون في (رزقناهم) " تنبيه على أن ما يصير الرزق بسببه رزقـــاً لصاحبه هو حق خاص له خوله الله إياه بحكم الشريعة على حسب الأســـباب والوسائل التي يتقرر بها ملك الناس للأمـــوال والأرزاق ، وهـــي الوســـائل المعتبرة في الشريعة التي اقتضت استحقاق أصحابها ، واستئثارهم بها بسبب الجهد مما عمله المرء بقوة بدنه التي لا مرية في أنهـــا حقـــه .. ، وتقـــديم المجرور المعمول على عامله وهو (ينفقون) لمجرد الاهتمام بالرزق فـــي عرف الناس ، فيكون في التقديم إيذان بأنهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النفس ، كقوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه)[١] ، مـــع رعـــي فواصل الآيات على حرف النون"[٢] .

وفي مجيء الصبر ، وإقامة الصلاة على صيغة اســـم الفاعـــل ، ومجـــيء الإنفاق بصيغة المضارع ــ أيضـــاً ــإشارة إلى أن الصبر صفة ملازمة لهم ، فهي ديدنهم الذي عليه مستمرون ، وكذلك إقامة الصلاة ، فإقـــامتهم لهـــا دائمة ، فهم مواظبون عليها ، دون كلل أو ملل ، وكأن في الآية إشارة إلـــى أنهم استجابوا لأمر الله عز وجل في قوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة) ،

---

[١] ـ من الآية رقم (٨) سورة الإنسان وقد ذكر العلماء هذه الآية في شواهد التتميم (ينظر في ذلك الإيضاح ٣ / ٢١٣ ، والبلاغة العربية ٣ / ٨٨ ، والمنهاج الواضح للبلاغة ، المؤلف : حامد العوني ٢ / ١٤٢ ، الناشر : المكتبة الأزهرية للتراث ، وخزانة الأدب وغاية الأرب ، المؤلف : ابن حجة الأموي : تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله الحموي ، تحقيق عصام شقيو ١ / ٢٧٢ ، الناشر : دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ، دار البحار ـ بيروت ـ الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م .

[٢] ـ التحرير والتنوير ١ / ٢٣٦ .

فالصبر وإقامة الصلاة صفتان ملازمتان لهم لا ينفكان عنهم ، أما الإنفاق فهو يتجدد من وقت لآخر ، ولذلك جاء التعبير عنه بصيغة المضارع ، وخالف نظم ما قبله ، وفي هذا إشارة إلى رحمة الله بعبادة ، فهو لم يفرض الإنفاق فرضاً يوميًا كالصلاة ، وإنما ترك فيه الخيار للإنسان ، ينفق كيف يشاء ، وفي الوقت الذي يشاء .

" وأتي بـ (من) المفيدة للتبعيض في (ومما رزقناهم) ؛ ليعلم سهولة ما أمر الله به ، ورغب فيه ، وأنه جزء يسير مما رزق الله ، ليس للعبد في تحصيله قدرة لولا تيسير الله له ، ورزقه إياه ، فيا أيها المرزوق من فضل الله أنفق مما رزقك الله ، ينفق الله عليك ، ويزدك من فضله "[١] .

ومن المخالفة من الاسم إلى الفعل قوله تعالى : (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٢] .

ففي هذه الآية يخاطب الله ــ عز وجل ــ آدم وحواء ، وذريتهما خطابًا يعلمهم فيه " أنه يبتليهم بالطاعة ، وأنه يجازيهم بالجنة عليها ، وأن هذا الابتلاء وقع عند الهبوط إلى الأرض "[٣] .

---

[١] ـ تفسير السعدي المسمى : تسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، المؤلف : عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، ١ / ٥٣٨ ، الناشر : مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .

[٢] ـ الآية رقم (٣٨) سورة البقرة .

[٣] ـ معاني القرآن وإعرابه المؤلف : إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج ١ / ١١٧ ، الناشر : عالم الكتب ـ بيروت ،

وقد ورد مثل هذا الأمر في الآيات السابقة على هذه الآية ، وذلك في قوله تعالى : (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض) وتكرر هنا ، وهذا التكرار بمثابة التأكيد اللفظي ، ولذا فصل قوله : (قلنا اهبطوا) لكمال الاتصال ، ولتنزيل هذه الجملة الثانية : (قلنا اهبطوا) من جملة (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض) منزلة التوكيد اللفظي ، يقول صاحب إعراب القرآن وبيانه : " قلنا اهبطوا تابعة لجملة (وقلنا اهبطوا) تأكيدًا لها ، ولتناط بها زيادة جديدة "[١] .

هذا وقد رأى أبو السعود أن هذه الآية جاءت استئنافاً بيانيًا لسؤال مقدر " كأنه قيل : فماذا وقع بعد قبول توبته ؟ فقيل : (قلنا اهبطوا) كرر الأمر بالهبوط إيذاناً بتحتم مقتضاه ، وتحققه لا محالة ، ودفعًا لما عسى أن يقع في أمنيته ــ عليه السلام ــ من استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك "[٢] .

وجاءت المخالفة في هذه الآية في قوله : (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، فعدل النظم القرآني عن التعبير بالمصدر (حزن) إلى التعبير بالجملة الفعلية اللابسة ثوب المضارع فقيل : (ولا هم يحزنون) مع أن النظم لو سار على ظاهره لقيل : فلا خوف عليهم ولا حزن وهذا ما يقتضيه ظاهر العطف . وهذا العدول من المصدر إلى الجملة الفعلية ، وتقديم الضمير (هم) على الفعل (يحزنون) قصد من وراءه الإشارة إلى الاختصاص

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ، وينظر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف : أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد علي الواحدي ، تحقيق : صفوان عدنان ، ١ / ١٠١ ، طبعة دار القلم ، الدار الشامية ـ دمشق ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .

[١] ـ إعراب القرآن وبيانه ١ / ٨٨ .

[٢] ـ إرشاد العقل السليم ١ / ٩٢ .

بانتفاء الحزن ، وبيان أن من لم يتبع الهدى ليس داخلاً في النفي ، بل هو مصاب بالهم والحزن وفي هذه يقول الطاهر بن عاشور " وعدل عن عطف المفرد بان يقال : ولا حزن إلى الجملة ، ليتأتى بذلك بناء المسند الفعلي على ضميرهم ، فيدل إلى أن الحزن واقع بغيرهم ، وهم الذين كفروا "[١] فهذا الأسلوب (ولا هم يحزنون) الذي تقدم فيه المسند إليه على الخبر الفعلي يفيد اختصاصهم بنفي الحزن عنهم مع وقوعه لغيرهم . يقول الإمام عبد القاهر في مثل هذا الأسلوب :" إذا قلت : ما أنا فعلت كنت نفيت عنك فعلاً يثبت أنه مفعول ، تفسير ذلك : أنك إذا قلت ما قلت هذا ، كنت نفيت أن تكون قد قلت ذاك ، وكنت نوظرت في شيء لم يثبت أنه مقول ؟ وإذا قلت : ما أنا قلت هذا كنت نفيت أن تكون القائل له ، وكانت المناظرة في شيء ثبت أنه مقول .. ومما هو مثال بيّن في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل قوله :

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا[٢] .

المعنى كما لا يخفي على أن السقم ثابت موجود ، وليس القصد بالنفي إليه ، ولكن إلى أن يكون هو الجالب له ، ويكون قد جره إلى نفسه "[٣] .

فهذا الضمير المتقدم على الفعل في : (ولا هم يحزنون) أفاد اختصاص من اتبع الهدى بانتفاء الحزن عنهم ، وأن من لم يتبع الهدي فهو في زمرة المصابين بالحزن .

---

[١] ـ التحرير والتنوير ٨ / ١٠١ .
[٢] ـ ديوان المتنبي ١٧٥ .
[٣] ـ الدلائل ١ / ١٢٤ ، ١٢٥ .

وتلحظ أن النظم القرآني قدم الخوف المنفي على الحزن المنفي " لأن انتفاء الخوف فيما هو آت آكد من انتفاء الحزن على ما فات ، ولذلك أبرزت جملته مصدره بالنكرة ، التي هي أوغل في باب النفي ، وأبرزت الثانية مصدرة بالمعرفة في قوله : (ولا هم يحزنون) "[١] .

ويعلل العلامة البقاعي التعبير بالمصدر في انتفاء الخوف ، والمخالفة إلى الجملة الفعلية في انتفاء الحزن ، فيقول : " ولما كان الوصف لرؤوس المؤمنين عدّ أعمالهم أسبابًا ، فأخبر عنهم بقوله : (فلا خوف عليهم) أي يعلوهم بغلبة الضرر ، ولعله يعبر في مثل هذا بالاسم إشارة إلى أن هيبته بالنظر إلى جلاله ، وقهره ، وجبروته ، وكبره لا تنتفي ، ويحصل للإنسان باستحضارها إخبات ، وطمأنينة ، ووقار وسكينة يزيده في نفسه جلالاً ورفعة وكمالاً ، فالمنفي خوف يقلق النفس (ولا هم) ، في ضمائرهم ، ولا في ظواهرهم (يحزنون) أي يتجدد لهم شيء من حزن أصلاً "[٢] .

فالعلامة البقاعي بذلك يشير إلى أن المخالفة إلى المضارع قصد من ورائها نفي تجدد الحزن ، وذلك لأن الخوف يكون مما هو آت ، والحزن يكون على ما فات " ، ومن هنا فقد نفى عنهم الخوف المتوقع وتناسب مع هذا التعبير بالمصدر ، ونفى عنهم تجدد الحزن الفائت ، وتناسب مع هذا التعبير بصيغة المضارع .

---

[١] ـ البحر المحيط ١ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
[٢] ـ نظم الدرر ١٨ / ١٤٤ .

ثانيـــاً : المخالفة من الفعل إلى الاسم :

قال تعالى : " (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِـــنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّـــابِرِينَ فِـــي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[١] .

فإنه " لما بين سبحانه وتعالى كفر أهل الكتاب الطاعنين فـــي نســـخ القبلـــة بتكذيب الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكتمان الحق وغير ذلك إلـــى أن ختم كفرهم بالاختلاف في الكتاب ، وكتمان ما فيه من مؤيـــدات الإســـلام ، أتبعه الإشارة إلى أن أمر الفروع أحق من أمر الأصول ؛ لأن الفروع ليست مقصودة لذاتها ، والاستقبال الذي جعلوا من جملة شقاقهم أن كتموا ما عندهم من الدلالة على حقيته ، وأكثروا الإفاضة في عيب المتقين به ليس مقصـــودًا لذاته ، وإنما المقصود بالذات الإيمان ، فإذا وقع تبعته جميع الطاعات مـــن الصلاة المشترط فيها الاستقبال ، وغيرها ، فقال تعالى (ليس البر)"[٢] .

وفي هذه الآية جاءت المخالفة من الفعل إلى الاسم في قولـــه : (والموفـــون بعهدهم إذا عاهدوا) ، ففي قوله (والموفون) أخذ النظم في الآية نمطـــاً مغايرًا لما قبله ، فما قبله جاء بصيغة الماضي ، فقيل (آمن بالله) ، (وأقام الصلاة) ، (وآتى الزكاة) .

---

[١] ـ الآية رقم (١٧٧) سورة البقرة .
[٢] ـ نظم الدرر ٣ / ١ .

وقوله : (والموفون بعهدهم) معطوف على (من آمن) ، فكان ظاهر العطف والنظم يقتضي أن يقال ، وأوفوا بعهدهم ، وإنما خالف النظم من صيغة الفعل الماضي إلى صيغة اسم الفاعل الجمع ، اهتمامًا بشأن الوفاء بالعهد ، وعناية بأمره ، وتحذيرًا من الاستهانة به ، وتأكيدًا على الثبات والاستمرار في الالتزام بهذه الصفة ، صفة الوفاء بالعهد . فالإنسان قد يتهاون بهذا الأمر ، وهو لا يدري أنه يرتكب جرمًا كبيرًا قد يخرجه من باب الإيمان ، ويدخله في صفوف المنافقين ، وذلك لأن عدم الوفاء بالعهد من أبرز صفاتهم . فالمخالفة في النظم " وإيثار صيغة اسم الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء بالعهد "[١] ففي المخالفة في النظم من الفعل إلى الاسم تمييز لصفة الوفاء بالعهد ، وإبراز لأمرها ، وبيان أنها مقصودة لذاتها ، وذلك لأن صفة الوفاء بالعهد مشتركة في كل ما تقدمها من أعمال ، لأن الإيمان بالله وفاء بالعهد مع الله ، وإقامة الصلاة والمحافظة عليها وفاء بالعهد مع الله ، وكذلك الزكاة ، ومن هنا أخذ الوفاء بالعهد نمطًا مغايرًا ، وعدل فيه من صيغة إلى أخرى إظهارًا لأهميته ، ولذا يقول العلامة البقاعي : " ولما أتم الإيمان وما يصدق دعواه في الجملة شرع في كمال ذلك فعطف على أول الكلام ما دل بعطفه كذلك على أنه مقصود لذاته فإنه جامع لدخوله في جميع ما تقدمه فقال : (والموفون بعهدهم)"[٢] .

---

[١] ـ محاسن التأويل ، المؤلف محمد جمال الدين بن محمد سعد بن قاسم الحلاق القاسمي ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ١ / ٤٨٤ ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .

[٢] ـ نظم الدرر ٣ / ٧ .

ويوجه الراغب المخالفة في هذه الآية فيقول : " إن قيل لما قال :(والموفون بعهدهم) ، ولم يقل ووفى كما قال : (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) ؛ ليكون الكلام على نسق واحد ؟ قيل : ذلك لأمرين : أحدهما اللفظ ، وهو أن الصلة متى طالت كان الأحسن أن يعطف على الموصول دون الصلة ؛ لئلا يطول فيقبح ، والثاني أنه ذكر في الأول ما هو داخل في حيز الشريعة ، وغير مستفاد إلا منها ، فالحكمة العقلية تقتضي العدالة دون الجود ، ولما ذكر الوفاء بالعهد وهو مما يقتضي العقول المجردة صار عطفه على الأول أحسن "[١] .

وهذه المخالفة في النظم ــ أيضًا ــ تشير إلى ملمح آخر ، وهو مغايرة ومخالفة صفة الوفاء بالعهد لما قبلها من الصفات لأن ما قبلها من صفات جاء لبيان حقوق الله ــ عز وجل ــ على عبادة ، فالإيمان ، والصلاة ، والزكاة من حقوق الله على العباد ، أما الوفاء بالعهد فهو من حقوق العباد ، وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور : " وعطف والموفون على (من آمن بالله) وغير أسلوب الوصف فلم يقل : ومن أوفى بعهده للدلالة على مغايرة الوصفين بأن الأول من علائق حق الله تعالى ، وأصول الدين ، والثاني من حقوق العباد "[٢] .

---

[١] ـ تفسير الراغب ، المؤلف : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق : د / محمد عبد الحميد بسيوني ١ / ٣٧٨ ، الناشر : كلية الآداب ـ جامعة طنطا ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

[٢] ـ التحرير والتنوير ٢ / ١٣١ .

وزيادة في التأكيد على حق الوفاء بالعهد جاء التقييد بالشرط في قولـــه (إذا عاهدوا) فالتقييد هنا كما يقول العلامة الشهاب " للتأكيد والمبالغة ، أو للتتميم "[١] .

وقال تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِـــلُّ عَـــنْ سَـــبِيلِهِ وَهُـــوَ أَعْلَـــمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[٢] .

فهذه الآية جاءت تعليل لقوله تعالى : (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)[٣] ، لأن مضمونه التحذير من نزعاتهم ، وتوقع التضليل منهم ، وهـــو يقتضـــي أن المســـلمين يريدون الاهتداء ، فليتجنبوا الضالين ، وليهتدوا بـــالله الـــذي يهـــديهم "[٤] . والآية أسلوب خبري أكد بإن مع أن الخبر فيها لا يحتمل الشك أو الإنكـــار ، و (إنما) إذا دخلت على خبر لا يحتمل الشك أو الإنكار فإنها تفيد التقويـــة والاهتمام بالخبر ، وفي هذا يقول صاحب الأطول : " وها هنا بحث لا بـــد من التنبيه عليه ، وهو أنه لا ينحصر فائدة (أن) في تأكيد الحكم نفيـــاً لشك أو ردًا لإنكار ، ولا يجب في كل كلام مؤكد أن يكون الغرض منه رد إنكار

---

[١] ـ حاشية الشهاب المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي) ، المؤلف : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي ، ٢ / ٢٧٠ ، دار صادر بيروت ، بدون تاريخ .

[٢] ـ الآية رقم (١١٧) سورة الأنعام .

[٣] ـ الآية رقم (١١٦) سورة الأنعام .

[٤] ـ التحرير والتنوير ٨ / ٢٨ .

محقق أو مقدر "[١] ويوضح صاحب الأطول ذلك فيقول " أراد بنفي وجود كونه لرد إنكار محقق أو مقدر ما يشمل رد الإنكار والتردد "[٢] .

وعلى هذا (فإنّ) هنا في الآية ليست لرد شك أو إنكار ، لأن المخاطب هو النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يعلم يقيناً مضمون هذا الخبر .

" ولما اشتملت الآيات السابقة على هذه الآية على بيان ضلال الضالين ، وهدى المهتدين كان قوله : (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) تذييلاً لجميع تلك الأغراض "[٣] .

وقد جاءت المخالفة هنا بين صيغتي الضلال والهداية ، فقد جاء اللفظ الدال على الضلال لابسًا ثوب المضارع فقيل (يضل) وجاء اللفظ الدال على الهدى بصيغة اسم الفاعل الجمع فقيل (وهو أعلم بالمهتدين) ، وقدم الضال في الآية على المهتدي ، وفي هذا التقديم ، وتلك المخالفة يقول العلامة أبو السعود " وتقديم الضالين لما أن مساق الكلام لهم ، وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث ، لما أنه تغير لفطرة الله التي فطر الناس عليها ، وإعراض عن الدعوة ، وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذي هو عبارة عن الثبات على الفطرة ، والجريان على موجب الدعوة ، ولذلك جيء به على صيغة الاسم المنبئ عن الثبات " [٤] .

---

[١] ـ المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني الهروي ، ص ٥٣المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٣٣٠هـ .

[٢] ـ الأطول شرح تلخيص المفتاح للعلامة إبراهيم بن محمد بن عريشاه عصام الدين الحنفي ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، ١ / ٢٥٤ ، منشورات : محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .

[٣] ـ التحرير والتنوير ٨ / ٢٩ .

[٤] ـ تفسير أبي السعود ٥ / ١٥١ .

والمخالفة بين الصيغتين الفعلية (يضل) ، والاسمية (بالمهتدين) تنبئ عن المخالفة في حال وجزاء الفريقين : الضال ، والمهتدي ، فكل من الفريقين له جزاء يخالف جزاء الآخر ، فالضال مآله العقاب والعذاب الشديد من الله عز وجل ، ومأواه جهنم وبئس المصير ، والمهتدي ثوابه عظيم عند الله ، ومآله جنات النعيم . ومن هنا كان في المخالفة في النظم إيماء إلى هذه المخالفة في الثواب والعقاب . ويأتي قوله (هو أعلم) ؛ ليضفي على الكلام مزيدًا من التأكيد ، وهو قصر جاء " لإفادة قصر المسند على المسند إليه ، فالأعلمية بالضالين والمهتدين مقصورة على الله تعالى لا يشاركه فيها غيره ، ووجه هذا القصر أن الناس لا يشكون في أن علمهم بالضالين والمهتدين علم قاصر " [١] .

وقد كرر قوله (هو أعلم) تأكيدًا لهذه المخالفة بين الفريق الضال ، والفريق المهتدي ، يقول العلامة أبو السعود :" وتكرير هو أعلم للتأكيد ، والإشعار بتباين حال المعلومين ، ومالهما من العقاب والثواب"[٢] .

ومن المخالفة من الفعل إلى الاسم قوله تعالى : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[٣] .

ففي هذه الآية خطاب موجه من هود ــ عليه السلام ــ إلى قومه ، وقد جاء نفس الخطاب على لسان سيدنا نوح ــ عليه السلام ــ ، وذلك في قول الله تعالى : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤]

---

[١] ـ التحرير والتنوير ٨ / ٣٠ .
[٢] ـ تفسير أبي السعود ٥ / ١٥١ .
[٣] ـ الآية رقم (٦٨) سورة الأعراف .
[٤] ـ الآية رقم (٦٢) سورة الأعراف .

، والمدقق في النظم يجد أن خطاب سيدنا نوح ــ عليه السلام ــ جاء هكذا (وأنصح لكم) فجاء الفعل موافقـاً لما يقتضيه الـنظم قبلـه ، لأنـه جـاء معطوفـاً على الفعل الماضي (أبلغكم) ، أما في هذه الآية ، والتـي جـاء الخطاب فيها على لسان نبي الله هود ــ عليه السلام ــ فقد خالف اللفظ الدال على النصح ما قبله في النظم ، فقد جاء اللفظ بصيغة اسم الفاعل هكذا (وأنا لكم ناصح أمين) ، وإنما عدل عن صيغة الفعل (أنصح) التي كانت هـي مقتضى ظاهر النظم إلى صيغة الاسم " ليحصل منه أن ذلك الوصف الجليل لازم له غير مفارق ، ولم يكن الفعل ليعطي ذلك ، فجاء بالاسـم ، وجعلـه الخبر عن ضميره الذي هو (أنا) ، فهذا مقصود ثابت الوصف ، ولزومـه مثل الوارد في قوله تعالى مخبرًا عن المنافقين (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَـالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْـتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)[1] ، فأخبر عـن قـولهم للمؤمنين (آمنا) بالفعل الماضي ، وليس من وصفه إعطاء الدوام في الأكثر ، إذ يقول فعلت من أوقع الفعل مرة واحدة . وأخبـر تعـالى عـن قـولهم لإخوانهم وشياطينهم بقولهم (إنا معكم إنما نحن مستهزئون) فجاء بالاسـم إعلامًا بصفتهم التي عليها مستمرون ، فكذا هذا الإخبار الواقع هنا في هـذا المقصود من التمادي والاستمرار حين قال هود ــ عليه السلام ــ (وأنا لكم ناصح أمين) فجاء بالاسم فانتهى ما رموه به من السفاهة جمله ، وقابـل ــ

---

[1] ـ الآيتان رقم (١٤ ، ١٥) سورة البقرة .

عليه السلام ــ مقالهم الشنيه بخبره الصادق عن نفسه فرد مقالهم ، ولم يكن الفعل يحرز هذا المقصد "[١] .

وإلى هذا الفرق بين التعبير بالجملة الاسمية والتعبير بالجملة الفعلية يقول الإمام عبد القاهر : " الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم وبينه إذا كان بالفعل هو فرق لطيف تمس الحاجة في علم البلاغة إليه ، وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء ، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء "[٢] .

كما أن في المخالفة والعدول من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية في (وأنا لكم ناصح أمين) مقابلة لتعبيرهم بالجملة الاسمية ، واتهامهم له بقولهم (وإنا لنظنك من الكاذبين) ، " والمعنى : أني عرفت فيكم بالنصح فلا يحق لكم أن تتهموني ، وبالأمانة فيما أقول ، فلا ينبغي أن أكذب "[٣] .

والسر في مجيء قول نوح ــ عليه السلام ــ على ما يقتضيه ظاهر النظم دون المخالفة والعدول إلى الجملة الاسمية في قوله : (وأنصح لكم) هو " أن القوم كانوا يبالغون في السفاهة على نوح ــ عليه السلام ــ ثم إنه في اليوم الثاني كان يعود إليهم ، ويدعوهم إلى الله ، وقد ذكر ــ الله تعالى ــ

---

[١] ـ ملاك التأويل ١ / ١٩٧ ، ١٩٨ .

[٢] ـ الدلائل ١٧٤ .

[٣] ـ البحر المحيط ، المؤلف : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، تحقيق الشيخ: عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ :علي محمد عوض ٥ / ٨٧ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

عنه ذلك فقال : (قـــــــال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا)[١] فلما كان من عادة نوح ــ عليه السلام ــ العودة إلى تجديد تلك الدعوة في كل يــوم ، وفي كل ساعة لا جرم ذكره بصيغة الفعل فقال : (وأنصح لكم) وأما هــود ــ عليه السلام ــ فقوله : (وأنا لكم ناصح أمين) يدل على كونه مثبتــاً في تلك النصيحة ، مستقرًا فيها "[٢] ، وفيه رد على قومه في قــولهم : (إنــا لنراك في سفاهة)[٣] ، ولذا يقول العلامة البقاعي " ولما كان قد رموه بالسفه الذي هو من غرائز النفس ؛ لأنه ضد الحلم والرزانة ، عبر عن مضــمون الجملة النافية له بما يقتضي الثبات ــ فقال : (وأنا لكم ناصح أمين) أي لم يزل النصح من صفتي ، وليس هو تكسبته ، بل غريزة في ، وقد بلوتمــوني فيه قبل هذه الرسالة ــ وإظهــار هذه المقالة "[٤] .

ومن المخالفة من الفعل إلى الاسم قوله تعــالى علــى لســان فرعــون : (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِــنَ الْمُسْلِمِينَ)[٥] .

فهذه الآية جاءت في نهاية قصة موسى ــ عليه السلام ــ وهي تحكي نهاية فرعون ، ولذا يقول الشيخ سيد قطب[٦] مشيرًا إلى هذه الآية : " في نهايــة

---

[١] ـ الآية رقم (٥) سورة نوح .
[٢] ـ مفاتيح الغيب ١٤ / ٣٠٠ .
[٣] ـ من الآية رقم (٦٦) سورة الأعراف .
[٤] ـ نظم الدرر ٧ / ٤٣٦ .
[٥] ـ الآية رقم (٩٠) سورة يونس .
[٦] ـ في ظلال القرآن ٣ / ١٧٥٢ .

قصة موسى في السورة يجيء هذا المشهد ، وكأنه الصورة الواقعية لذلك الوعيد الذي جاء في قوله تعالى : (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)[1] .

وقد جاء الفعل الأول (آمنت) بصيغة الماضي إظهارًا منه كذبًا أن إيمانه قد تحقق وثبت ، وصار بمنزلة الحدث الحاصل المؤكد ، ولو سار نظم الكلام على ظاهره ، وعلى سيرته الأولى لجاء النظم هكذا وأسلمت عطفاً على (آمنت) ، إلا أنه خولف في النظم ، وعدل من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية التي يتصدرها ضمير المتكلم فقيل (وأنا من المسلمين) وتلك المخالفة لها غرض ، وهدف ، ولطيفة بلاغية مقصودة من ورائها ، وهي بيان جهله بالإسلام ، والشريعة التي جاء بها نبي الله موسى عليه السلام . كما دل اسم الموصول (الذي) وصلته في قوله : (آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل) على جهله بالله عز وجل ، فهو لا يعلم عن هذا الإله إلا إيمان ، واتباع بني إسرائيل له وصلتهم به . كما أنه لا يعلم عن الإسلام شيئاً وإنما يعلم هذه المجموعة من بني إسرائيل التي اتبعت موسى ــ عليه السلام ــ وأطلقوا على أنفسهم هذا الاسم : المسلمين ، ولذا لم يقل : وأسلمت ، وإنما قال : (وأنا من المسلمين) ، أي أنا مع هؤلاء الناجين الذين نجوا بسبب اتباعهم لدين موسى عليه السلام . وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور : " وقد بني نظم الكلام على جملة (إذا أدركه الغرق) وجعل ما معها كالوسيلة إليها ، فجعلت حتى لبيان غاية الاتباع ، وجعلت الغاية أن قال : آمنت ؛ لأن

---

[1] - الآية رقم (٥٢) سورة يونس .

اتباعه بني إسرائيل كان مندفعًا إليه بدافع حنقه عليهم لأجل الدين الذي جاء به رسولهم ؛ ليخرجهم من أرضه ، فكانت غايته إيمانه بحقهم ، ولذا قال (الذي آمنت به بنو إسرائيل) ليفيد مع اعترافه بالله تصويبه لبني إسرائيل فيما هدوا إليه ، فجعل الصلة طريقاً لمعرفته بالله "[١] ، فهو لا يعرف عن الله شيئاً إلا ما جاء في حيز الصلة ، وهو إيمان بني إسرائيل به " ولعدم علمه بالصفات المختصة بالله إلا ما تضمنته الصلة إذ لم يتبصر في دعوة موسى تمام التبصر ، ولذلك احتاج أن يزيد : (وأنا من المسلمين) ؛ لأنه كان يسمع من موسى دعوته لأن يكون مسلمًا ، فنطق بما كان يسمعه ، وجعل نفسه من زمرة الذين يحق عليهم ذلك الوصف ، ولذلك لم يقل : وأسلمت ، بل قال : أنا من المسلمين ، أي يلزمني ما التزموه "[٢] . ففي المخالفة في النظم ، والعدول من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية تأكيد لدعوى الإيمان ، أي : وأنا ممن أسلم نفسه لله ، وأخلص إيمانه.

وفي هذه المخالفة من الفعلية إلى الاسمية ، ادعاء كاذب من فرعون بأن إيمانه بالله وإسلامه أمران دائران بين التحقق المستفاد من الماضي (آمنت) ، والثبوت والاستقرار المستفاد من الجملة الاسمية (وأنا من المسلمين) ، وبذلك يكون قد استنفذ فرعون كل الطاقات ، وكل الحيل من أجل الإنقاذ والنجاة من الغرق ، ولكن هيهات هيهات أن تجدي الحيل والأكاذيب أمام عظمة وجبروت من يعلم السر وأخفى.

---

[١] ـ التحرير والتنوير ١١ / ٢٧٦ .
[٢] ـ المصدر نفسه ١١ / ٢٧٦ .

ومما جاء من المخالفة من الفعل إلى الاسم قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)[١].

فهذه الآية جاءت بمثابة الدليل على ما جاء قبلها ، فقد سبقت بما يدل على عظمة الله وقدرته ، وتفرده بملك السماوات والأرض ، وذلك في قوله تعالى : (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)[٢] .

" ولما نص على عظمة الله تعالى في الآية المتقدمة عقب ذلك في هذه الآية بالتنبيه على أفعاله لتبين العظمة المحكوم بها قبل "[٣] .

ففي هذه الآية نبه الله تعالى " على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة ، بأن جعل لهم الليل مظلمًا ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردد في المعاش ، والنهار مضيئاً يبصرون فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم "[٤] .

وقد خولف في هذه الآية بين قوله : (لتسكنوا) وقوله : (مبصرًا) ولو سار النظم على وتيرة واحده لقيل : والنهار لتبصروا فيه ، كما قيل : (لتسكنوا فيه) ، ولكن عدل في النظم من صيغة الفعل إلى صيغة الاسم ، فقيل : مبصرًا فأسند الإبصار إلى النهار مجازًا ، وهو من المجاز العقلي وعلاقته الزمانية ، لأن النهار لا يبصر ، وإنما هو زمن للإبصار ، فهو

---

[١] - الآية رقم (٦٧) سورة يونس .
[٢] - الآية رقم (٦٦) سورة يونس .
[٣] - المحرر الوجيز ٣ / ١٣٠ .
[٤] - الكشاف ٢ / ٣٥٨ .

يبصر فيه " ولكن لما كان مفهومًا في كلام العرب معناه خاطبهم بما في لغتهم وكلامهم "[١] .

ومن ذلك قول جرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم[٢] .

فجعل الليل نائمًا ، والليل لا ينام ، وإنما هو زمن للنوم ، وكذلك النهار في الآية زمن للإبصار ، ففي " هذه الألفاظ إيجاز ، وإحالة على ذهن السامع ؛ لأن العبرة هي في أن الليل مظلم يسكن فيه ، والنهار مبصر يتصرف فيه ، فَذكِر طرف من هذا ، والطرف الآخر من الجهة الثانية ، ودل المذكوران على المتروكين "[٣] .

وهذه المخالفة من الفعل إلى الاسم في الآية قصد منها هذا الإسناد المجازي الذي يضفي على الكلام مزيدًا من الفصاحة ، والمبالغة ، وفي هذا يقول العلامة البيضاوي " وإسناد الإبصار إليه ــ يقصد النهار ــ مجاز فيه مبالغة ، ولذلك عدل به عن التعليل إلى الحال "[٤] ، فالعلامة البيضاوي يشير بقوله (ولذلك عدل به عن التعليل إلى الحال) إلى هذه المخالفة وذلك العدول من (لتبصروا فيه) إلى قوله تعالى (والنهار مبصرًا) .

وفي هذه المخالفة اهتمام بشأن النهار ، وزيادة اعتناء بأمره ، وذلك لما فيه من السعي ، وطلب الرزق وتعمير الكون ، وفيها ــ أيضاً ــ دعوة إلى

---

[١] ـ تفسير الطبري ١٥ / ١٤٤ .

[٢] ـ ديوان جرير شرح محمد إسماعيل عبد الصاوي ،ص ٥٥٤ ، مطبعة الصاوي ـ الطبعة الأولى

[٣] ـ المحرر الوجيز ٣ / ١٣٠ .

[٤] ـ تفسير البيضاوي ٥ / ٦٢ .

ترك الكسل ، والركون إلى الدعة والراحة ، وحث على بذل الجهد ، وتحصيل الرزق من الحلال الذي لا يأتي إلا بعد تعب وكد ، وصبر ومثابرة على العمل .

يقول العلامة الزمخشري معللاً هذه المخالفة : " فإن قلت لم قرن الليل بالمفعول له ، والنهار بالحال ؟ وهلا كانا حالين ، أو مفعولاً لهما ، فيراعى حق المقابلة ؟ : قلت هما متقابلان من حيث المعنى ؛ لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر ؛ ولأنه لو قيل : لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي ، ولو قيل : ساكناً والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، ــ ألا ترى إلى قولهم : ليل ساج وساكن لا ريح فيه ــ لم تتميز الحقيقة من المجاز "[١] ، وبالإضافة إلى هذه العلة فإن المخالفة من الاسم إلى الفعل تنبئ عن اختلاف طبيعة النهار عن طبيعة الليل في الحياة من جهات كثيرة ، من جهة النور والظلمة ، ومن جهة العمل والراحة ، ومن جهة الأمن والخوف ، فالليل مصدر خوف وقلق عند التنقل ، لما فيه من ظلمة وغموض ووحشة ، ولذا تكثر فيه السرقة ، والسلب ، والنهب ، ويكثر فيه قطاع الطرق ، أما النهار فهو موضع أمان وطمأنينة لما فيه من الوضوح ، والأنس بالناس ، ومن هنا كانت المخالفة في النظم ، دالة على المخالفة في الطبيعة ، ومنبئة عنها .

---

[١] ـ **الكشاف ٤ / ١٧٥ .**

ومن ذلك ــ أيضــاً ــ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّــهَ وَهُــوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١] .

فقد جاءت هذه الآية لتبين بعض صفات المنافقين ، وتبين كيفيــة معــاملتهم لدين الله ، وللرسول وللمؤمنين ، وفي هذه الآية يقول الشوكاني " هذا كــلام مبتدأ يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين ، وفضائحهم "[٢] .

وقد صدرت الآية بإنَّ تأكيدًا لهذه الحالة العجيبة من الخداع ، وتحقيقــاً لهــا فهي حالة ثابتة ، ويقينية بالنسبة لهم ؛ فأسلوبهم قائم على الخداع والكــذب ، والالتواء في التعامل ، وألسنتهم لا تعكس ما تضــمره قلــوبهم ، وقلــوبهم مخالفة لظاهر أحوالهم .

ولما كانت هذه الصفات المذكورة في الآية محققة جاء التعبير بــ (إذا) في (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) ليتآزر مع أسلوب التوكيد ــ الــذي بدأت به الآية ــ في إفادة التحقيق والتأكيد لهذه الصفات ، وذلك لأن (إذا) تدل على تحقيق وقوع الشيء بخلاف (إنْ) التي تدل علــى الشــك يقــول صاحب الإيضاح متحدثــاً على (إن) و (إذا) " فهما للشرط في الاستقبال ، لكنهما يفترقان في شيء ، وهو أن الأصل في (إن) أن لا يكون الشــرط فيها مقطوعًا بوقوعه ، كما تقول لصاحبك : إن تكرمني أكرمك ، وأنــت لا

---

[١] ـ الآية رقم (١٤٢) سورة النساء

[٢] ـ فتح القدير المؤلف : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني ١ / ٦١٠ الناشر : دار بن كثير ، ودار الكلم الطيب ، دمشق ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .

تقطع بأنه يكرمك ، والأصل في (إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه [١] .

وقد أخذ التعبير عن خداع الله للمنافقين نمطًا مخالفًا لنمط التعبير عن خداع المنافقين لله ، ففي شأن خداع المنافقين جاء التعبير بصيغة المضارع (يخادعون) أما خداع الله لهم فجاء بصيغة اسم الفاعل ، فقيل (وهو خادعهم) ، وفي هذه المخالفة من الفعل إلى الاسم دلالة على أن خداع الله لهم ثابت ومستمر ، ومحقق وغالب وذلك لأن " الخادع اسم فاعل من خادعته فخدعته ، إذا غلبته وكنت أخدع منه "[٢] ، فالمخالفة من الجملة الفعلية (يخادعون) إلى الجملة الاسمية (وهو خادعهم) فيها دلالة على أن خداع الله مغاير ومخالف لخداع المنافقين ، فخداع المنافقين هو خداع الضعيف الذي لا يؤثر ، والجبان الذي لا يخوّف ، أما خداع الله لهم فهو خداع الغالب القوي الذي لا يقهر ، فالمعنى أنهم " يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطال الكفر ، والله يفعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث يتركهم معصومي الدماء ، والأموال في الدنيا ، وأعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة "[٣] .

هذا وقد يخالف في النظم وينتقل من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية للدلالة على ثبوت الوصف كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ

---

[١] ـ الإيضاح ١٧٨ ، وينظر الدلائل ٨٢ ، ومفتاح العلوم ١ / ٢٤٠ ، ٢٤١ ، وبغية الإيضاح ١ / ١٦٩ .

[٢] ـ الكشاف ١ / ٥٧٩ .

[٣] ـ تفسير القاسمي ٣ / ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

نَاصِحُونَ)[١] ، وقوله تعالى : (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)[٢] .

فالآية الأولى جاءت في بداية قصة موسى ــ عليه السلام ــ ، والسؤال فيها موجه من أخت موسى ــ عليه السلام ــ إلى فرعون وحاشيته .

وقد كانت حريصة كل الحرص أن يستجيب فرعون لتوجيهها ، ولذلك تلطفت بهذا الاستفهام (هل أدلكم) لتبين أن الأمر في النهاية يرجع إليهم ، وما هي إلا دالة ومرشدة ومساعدة .

ومن أجل هذا الحرص على الاستجابة لتوجيهها جاء النظم داخل الآية مخالفاً للظاهر ، فعدل من الفعلية في (يكفلونه لكم) إلى الاسمية في (وهم له ناصحون) ، ولو سار النظم على ظاهره لقيل : يكفلونه لكم وينصحونه ، وهذه المخالفة ، وذلك العدول جاء " لقصد تأكيد أن النصح من سجاياهم ، ومما ثبت لهم ، فلذلك لم يقل : وينصحون له كما قيل : ويكفلونه لكم ؛ لأن الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية . وتعليق له بـ (ناصحون) ليس على معنى التقييد ، بل لأنه حكاية الواقع فالمعنى : أن النصح من صفاتهم ، فهو حاصل له كما يحصل لأمثاله حسب سجيتهم "[٣] .

والآية الثانية جاءت لتبين موقف فرعون وقومه من دعوة موسى عليه السلام.

---

[١] ـ الآية رقم (١٢) سورة القصص .
[٢] ـ الآية رقم (٧٥) سورة يونس .
[٣] ـ التحرير والتنوير ٢٠ / ٨٤ .

والنظم القرآني في هذه الآية خالف في قوله : (وكانوا قومًا مجرمين) ، فقد عدل من الفعل إلى الاسم ، وكان مقتضى ظاهر النظم أن يقال : وأجرموا ، عطفـــاً على (فاستكبروا) " وإنما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملـــة الاسمية للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم ، وتمكنه مـــنهم ، ورســـوخه فيهم من قبل حدوث الاستكبار ، وفي ذلك تنبيه على أن وصـــف الإجـــرام الراسخ فيهم هو علة للاستكبار الصادر منهم ، فكان دالـــة علـــى اســـتمرار الخبر وهو وصف الإجرام "[١] .

---

[١] ـ المصدر نفسه ٩ / ٧١ .

المبحث الثالث

المخالفة من التنكير إلى التعريف والعكس :

هذا النوع من المخالفة داخل التركيب الواحد كسابقه لم يأخذ حظه من الدراسة في كتب التراث البلاغي ، فمع أن البلاغيين قد استنفذوا كل طاقتهم ، واعتنوا عناية فائقة بأسرار التنكير والتعريف[١] إلا أن هذه العناية كانت عناية فردية ، فقد درسوا أسرار التنكير وحده ، وأسرار التعريف وحده كل منهما على حده ، دون التعريج والنظر إلى الجمع بينهما داخل السياق الواحد والعدول من أحدهما إلى الأخر ، وفرق كبير بين المخالفة من التعريف إلى التنكير والعكس ، وبين أسرار التعريف وحده في التركيب ، وأسرار التنكير وحده ، ويخطئ من يظن الخلط بين الأسلوبين ، فهذا له مقاصده وأسراره ، وذاك له مقاصده وأسراره .

ومما يذكر للسبكي في هذا السياق أنه في نهاية حديثه عن أغراض تعريف المسند إليه وتنكيره أصّل لقاعدة عامة في التعريف والتنكير فيها ما يتصل بما نحن فيه بصرف النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معه في تعميم القاعدة ، فبعد أن مهّد للقاعدة بما يشير إلى أهميتها ، وأنها كثيرة النفع في كل علم أصّل لها بقوله : " إذا ذكر الاسم مرتين فإن كانا معرفتين ، أو الثاني معرفة

---

[١] - ينظر مفتاح العلوم ١ / ٢١٢ ، والإيضاح ٢ / ٩ - ٣٩ ، ٢ / ١٢٨ - ١٣٢ ، وشروح التلخيص ٢ / ٩١ - ١٠٣ ، ١ / ٢٨٧ - ٣٥٥ .

والأول نكرة فالثاني هو الأول ، وإن كانا نكرتين فالثاني غير الأول "[١] ، ثم ذكر في القاعدة ما يتعلق بما نحن بصدده فقال : " وإن كان الأول معرفة والثاني نكرة فقولان " [٢] ، ثم أخذ يمثل لهذه الأنواع التي ذكرها . ومما يؤخذ عليه هنا أنه قصر حديثه عن الاسم الواحد المذكور مرة معرفة ومرة نكرة ، ولم يتطرق إلى الحديث عن المخالفة من النكرة إلى المعرفة أو العكس في الأسماء المختلفة ، ولكن على كل حال يحمد له إشارته إلى هذا الأسلوب ، وتمثيله له ببعض الشواهد .

هذا وقد اعتنى المفسرون بتوجيه هذا النوع من الأساليب ، والكشف عن دقائقه وأسراره ، وهذا ما ستكشف عنه الدراسة .

أولاً : المخالفة من التنكير إلى التعريف :

قال تعالى : (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)[٣] .

فإنه سبحانه " لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة ، وإصابته بضدها أتبع ذلك أنه له الملك ، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ، ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته ، فيخص بعضاً بالإناث ، ويخص بعضاً بالذكور ، وبعضاً بالصنفين جميعًا ، ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولدًا قط "[٤] .

---

[١] ـ شروح التلخيص ص ٣٥٥ .
[٢] ـ المصدر نفسه ص ٣٥٥ .
[٣] ـ الآيتان رقم (٤٩ ، ٥٠) سورة الشورى
[٤] ـ الكشاف ٤ / ٢٣٢ .

وقد بدأت الآية بأسلوب القصر (لله ملك السماوات والأرض) ، وهذه الجملة هي الجملة الرئيسة التي يبنى عليها النظم كله داخل الآية ، والقصر هنا من قصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقيًا ، فهو وحده الذي يملك التصرف في السماوات والأرض ، وهو وحده الذي يعطي ويمنع ، ويعز ويذل ، ويغني ويفقر ، ولا أحد يملك ذلك إلا هو .

وشاهدنا في هذه الآية جاء في قوله : (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) ، فقد قدم لفظ (إناثا) وجاء نكرة ، ثم خولف في لفظ الذكور فجاء معرفاً ، فقيل (ويهب لمن يشاء الذكور) ، ولو سار النظم مطابقاً لما قبله لقيل : ويهب لمن يشاء ذكورًا ، كما قيل (إناثاً) .

وأرى أن هذه المخالفة جاءت موافقة لما جبلت عليه النفس البشرية من الاهتمام بهذا النوع ، والتنويه من شأنه ، والاحتفاء به ، والترقب له ، والتطلع إليه ، فأراد القرآن الكريم أن يظهر أن هذا النوع الذي تطلع إليه النفس البشرية هو هبة من الله ــ عز وجل ــ وليس لأحد فيه دخل ، فما يعيش الناس فيه من جهالة ، وتفضيل للمرأة التي تنجب الذكور على المرأة التي تنجب إناثاً مخالفٌ لشرع الله ، بل إن الأمر يصل ببعض الناس إلى أنهم يحملون المرأة المسئولية في ذلك ، وكأن الأمر كله بيدها ، أعاذنا الله من ذلك ، فهي عادة جاهلية حاربها الإسلام ، إلا أن الأجيال توارثتها ، بل وزادت الكارثة في عصرنا هذا .

كما أن في تعريف الذكور تعويضاً لهم عن التأخير عن الإناث في النظم ، فإنه لما كان الذكر مقدمًا على الأنثى ، وأخر عنها في نظم الآية عوض هذا التأخير في النظم بالتعريف ؛ تنويهًا من شان الذكور ، وتشريفاً لهم ،

وبيانـــاً لشهرتهم . يقول العلامة الزمخشري مبينـــاً سر المخالفة من التنكير إلى التعريف بين الإناث والذكور ، وسر تقديم الإناث على الذكور " فإن قلت : لمَ قدم الإناث أولاً على الذكور مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم ؟ ولـــم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث ؟ قلت : لأنه ذكر البلاء في آخـــر الآيـــة الأولى ، وكفران الإنسان بنسيان الرحمة السابقة عنده ، ثم عقبه بذكر ملكـــه ومشيئته ، وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث ؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاءه لا ما يشاءه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشـــاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ، وليلى الجنس الذي كانت العرب تعـــده بلاءً ذكر البلاء ، وأخر الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهـــم أحقاء بالتقديم بتعريفهم ؛ لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين ، الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطـــى بعـــد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرّف أن تقـــديمهن لـــم يكـــن لتقدمهن ، ولكن لمقتضى آخر ، فقال : ذكرانـــاً وإناثا ، كما قال : (إنـــــاّ خلقناكم من ذكر وأنثى)[١] (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى)[٢] "[٣] .

وفي المعادلة بين تقديم الإناث وتعريف الذكور ملمح لطيف ، وهو أنه يجب على الأبوين أن يعطيا كلاً من النوعين حقـــه ، وأن يعـــدلا بينهمـــا ، دون تفضيل لأحد النوعين على الآخر .

ومن أجل هذه الدعوة إلى المساواة تجد النظم القرآني بعـــد أن حقـــق هـــذه المعادلة بالتقديم والتعريف عاد فسوى بينهما في نهاية الآية فقال : (ذكرانـــاً

---

[١] ـ الآية رقم (١٣) سورة الحجرات
[٢] ـ الآية رقم (٣٩) سورة القيامة
[٣] ـ الكشاف ٤ / ٢٣٢ .

وإناثا) . يقول العلامة الزمخشري: " ولما أخر الذكور وهم أحقاء بالتقديم تدارك تأخيرهم بتعريفهم ، لأن التعريف تنويه وتشهير ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم ، والتأخير ، وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتضى آخر ، فقال : (ذكرانـاً وإناثا) "[١] .

هذا وقد علل الرازي تعريف الذكور تعليلا لا أتفق معه فيه ، يقول : " وأما السؤال الثاني وهو قوله : لم عبر عن الإناث بلفظ التنكير ، وعن الذكور بلفظ التعريف ؟ فجوابه : أن المقصود منه التنبيه على أن الذكر أفضل من الأنثى "[٢] . فهذا التعليل من الرازي لا يتفق مع ما تدعوا إليه الشريعة الإسلامية ، وتحث عليه من إكرام الأنثى ، وعدم إهانتها ، وعدم تفضيل الذكر عليها ، لأن كراهية الأنثى ، وتقديم الذكر عادة جاهلية حاربها الإسلام ، ولو كان المقصود من النظم بيان أفضلية الذكر على الأنثى لكان التقديم أولى من التعريف في بيان هذا ، ولكن النظم القرآني قدم الأنثى على الذكر في الآية " فجبر نقص الأنوثة بالتقديم ، وجبر نقص التأخير للذكور بالتعريف ، فإن التعريف تنزيه ، كأنه قال : يهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليه "[٣] ، فهذا التقديم في النظم قد أعطى الأنثى

---

[١] ـ المصدر نفسه ٤ / ٢٣٢ .

[٢] ـ مفاتيح الغيب ٢٧ / ٦١٠ .

[٣] ـ تفسير القرآن الكريم لابن القيم المؤلف / محمد بن أبي بكر بن ايوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية ، تحقيق : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية ، بإشراف الشيخ : إبراهيم رمضان ١ / ٤٦٩ ، الناشر : دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

حقها الذي حرمها منه المجتمع ، وقضت عليه العادات ، والتقاليد البعيدة عن شرع الله .

ومن المخالفة من التنكير إلى التعريف قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآَخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)[١] .

لما دلت الآية السابقة على هاتين الآيتين على تفرق الخلق يوم القيامة ، وذلك في قوله : (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون)[٢] بين سبحانه وتعالى هنا كيفية هذا التفرق.

فالآيتان قائمتان على أسلوب المقابلة ، لبيان جزاء المؤمنين ، وجزاء الكافرين يوم القيامة ، وقد قوبل قوله : (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بقوله : (وأما الذين كفروا) وقوبل قوله : (فهم في روضة يحبرون) بقوله (فأولئك في العذاب محضرون) .

ولما كان لفظ (العذاب) مقابلاً للفظ (روضة) كان مقتضى الظاهر أن يقال : في عذاب محضرون ، كما قيل : (في روضة يحبرون) ، ولكن النظم القرآني خالف في ذلك ، فنكر لفظ (روضة) ، وعرف لفظ (العذاب) ، وفي هذا تعظيم من شأن الروضة وتفحيم لأمرها ، وذلك لان " الروضة : هي الأرض ذات الخضرة "[٣] ، والمراد بها هنا في الآية الجنة ، وأراد

---

[١] ـ الآيتان رقم (١٥ ، ١٦) سورة الروم .
[٢] ـ الآية رقم (١٤) سورة الروم .
[٣] ـ ينظر لسان العرب لابن منظور ٧ / ١٦٢ الناشر دار صادر ـ بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ .

القرآن أن يبين أنها روضة ليست كرياض الدنيا ، وإنما هي روضة عظيمة لا يدرك كنهها ، ولا وصفها إلا صاحبها وهو الله عز وجل .

فهذا التعريف في العذاب والتنكير في الروضة فيه إظهار لعظمة ما أعده الله في الجنة للمؤمنين الطائعين ، وبيان للفرق الكبير ، والاختلاف الشديد بين مآل الفريقين ، المؤمن والكافر ، وكأن النظم القرآني أراد أن يظهر بهذه المخالفة اللفظية من التنكير إلى التعريف المخالفة في جزاء كل من الفريقين . وتعضيدا لذلك ، وتآزرا مع هذه المخالفة من التنكير إلى التعريف جاءت المخالفة من الصيغة الفعلية : (يحبرون) في قوله : (في روضة يحبرون) ، إلى الصيغة الاسمية في قوله : (في العذاب محضرون) ، فقد جاء الفعل في التعبير عن جزاء المؤمنين ، وجاء الاسم في التعبير عن جزاء الكفار وفي ذلك يقول أبو حيان : " وجاء (يحبرون) بالفعل المضارع لاستعماله للتجدد ؛ لأنهم كل ساعة يأتيهم ما يسرون به من متجددات الملاذ وأنواعها المختلفة ، وجاء (محضرون) باسم الفاعل ؛ لاستعماله للثبوت ، فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين ، فهو وصف لازم لهم "[١] .

وهكذا فإن الاختلاف في الصيغ داخل النظم جاء مقصودًا لذته ؛ لبيان الاختلاف الشاسع بين جزاء كل من المؤمنين الطائعين ، وجزاء الكفار ، فالطائفة المؤمنة منعمة خالدة في الجنة ، والطائفة الكافرة معذبة خالدة في النار .

---

[١] - **البحر المحيط ٨ / ٣٨٠ .**

ومن ذلك ــ أيضــاً ــ قوله تعــالى : ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّــهِ أَوْثَانًــا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[١] .

يربط العلامة أبو السعود بين هذه الآية وما قبلها فيقول : " (إنما تعبــدون من دون الله أوثانا) بيان لبطلان دينهم وشريته في نفسه بعد بيــان شــريته بالنسبة إلى الدين الحق "[٢] .

ففي هذه الآية دعوة إلى ترك عبادة الأوثان التي لا تضــر ولا تنفــع ، ولا ترزق ولا تفقر ، وعبادة الله وحده الرازق ، المالك ، الضار ، النافع .

وقد جاء الرزق مرتين في هذه الآية ، مرة بصيغة التنكير في قولــه : (لا يملكون لكم رزقــاً) ، والثانية بصيغة التعريف في قوله : (فابتغوا عنــد الله الرزق) ، ولو سار الكلام على نسق واحد لقيل مجانسة لما قبله : فــابتغوا عند الله رزقا ، ولكن النظم عدل من صيغة التنكير إلى صــيغة التعريــف ، فقيل : (فابتغوا عند الله الرزق).

وقد جاء لفظ الرزق الأول بصيغة التنكير ؛ لأنه وقع مفعــولاً بــه للفعــل المنفي (لا يملكون) ، فهو رزق غير مملوك للأوثان التي يتضــرع إليهــا الكفار ، ويطلبون منها الرزق ، فأراد أن ينفي عنهم القرآن ملــك أي رزق ولو كان ضئيلاً ، ولذلك جاء اللفظ (رزقــاً) نكرة للتقليل ، وهذه القلة تفيد

---

[١] ـ الآية رقم (١٧) سورة العنكبوت .
[٢] ـ إرشاد العقل السليم ٧ / ٣٤ .

نفي ملك الرزق من أصله ؛ لأن هذا اللفظ النكرة جاء في سياق النفي ، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم "[١] .

وعلى هذا فإن المعنى في الآية : أن الأوثان لا تملك رزقاً ، ولو كان قليلاً ، فكيف لمن لا يملك القليل أن يطلب منه الكثير .

أما الرزق الذي جاء بصيغة التعريف في (فابتغوا عند الله الرزق) فهو رزق عند الله ، وهو معروف وكثير ، ومضمون ، ولذا جاء معرفة ، وفي هذا يقول صاحب إعراب القرآن وبيانه " نكر الرزق في قوله : (لا يملكون لكم رزقاً) ، ثم عرفه بقوله : (فابتغوا عند الله الرزق) ؛ لأن الأول مقصور عليهم ، فاستوجب أن يكون ضئيلاً قليلا ، فنكره تدليلاً على قلته وضآلته ، ولما كان الثاني مبتغى عند الله استوجب أن يكون كثيرًا ؛ لأنه كله عند الله ، فعرفه تدليلاً على كثرته وجسامته "[٢].

ثانيـاً : المخالفة من التعريف إلى التنكير :

قال تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[٣] .

ففي هذه الآية أمر للمؤمنين بالصفح عن المشركين ، والعفو عنهم ، والإعراض عما يصدر عنهم من أذى " والآية نزلت في عمر ــ رضي الله

---

[١] - ينظر شروح التلخيص ٢ / ٣٥٤ .
[٢] - إعراب القرآن وبيانه ٧ / ٤١٧ .
[٣] - الآية رقم (١٤) سورة الجاثية.

عنه ــ شتمه غفاري فهمّ أن يبطش به ، وقيل : أنها منسوخة بآية القتال "[١] ويشير بن كثير إلى هذا النسخ فيقول : " وهذا كان في ابتداء الإسلام ، أمروا أ ن يصبروا على أذى المشركين ، وأهل الكتاب ؛ ليكون ذلك لتأليف قلوبهم ، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد ، هكذا روى بن عباس وقتادة "[٢] .ومن العلماء من يرى " أن الكلام في الآية محمول على ترك المنازعة ، والتجاوز عما يصدر منهم من الكلمات المؤذية "[٣] .

وفي هذه الآية مدح للمؤمنين ، وذم للكافرين أظهرتهما صياغة النظم داخل الآية ، فقد عبرت الآية باسم الموصول عن المؤمنين فقيل : (الذين) ، ثم جاء وصف الإيمان في جملة الصلة فقيل : (الذين آمنوا) ، ولم يقل : المؤمنين ، وفي هذا دلالة على الشهرة بوصف الإيمان ، فوصف الإيمان الذي جاء في حيّز الصلة هو أبرز أوصافهم التي استحقوا عليها المدح ، والثناء من الله عز وجل .

وزيادة في هذا المدح خولف في النظم من التعريف إلى التنكير ، فبعد أن عبر النظم عنهم باسم الموصول في قوله : (للذين آمنوا) عاد فعبر عنهم بالنكرة في قوله (ليجزي قومًا) ، وفي هذا يقول صاحب الكشاف : " فإن قوله : قومًا ، ما وجه تنكيره ، وإنما أراد الذين آمنوا ، وهم معارف ؟ قلت : هو مدح لهم ، وثناء عليهم ، كأنه قيل : ليجزي قومًا أيما قوم ، وقوما

---

[١] ـ البيضاوي ٥ / ١٠٦ .

[٢] ـ تفسير القرآن العظيم ، المؤلف : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ، تحقيق ، سامي بن محمد سلامة ٧ / ٢٦٦ ، الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

[٣] ـ اللباب في علوم الكتاب ١٧ / ٣٥٥ .

مخصوصين لصبرهم ، وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار ، وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص "[١] فهذا العدول من التعريف في (للذين آمنوا) إلى التنكير في (قومًا) " مشعر بأنهم ليسوا بمضيعة عند الله ، فإن لفظ قومٍ مشعر بفريق له قوامه وعزته "[٢] .

ومن ذلك قول الشاعر :

أفآت بنو مروان ظلمًا دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل[٣]

فالله تعالى " أعرف المعارف ، وسماه الشاعر حكمًا عدلاً ، وأخرج اللفظ مخرج التنكير ، ألا ترى كيف آل الكلام من لفظ التنكير إلى معنى التعريف "[٤] .

ومقابلة لهذا المدح للمؤمنين جاء الذم للكافرين في التعبير عنهم باسم الموصول : (الذين) ووقوع جملة النفي : (لا يرجون أيام الله) في حيّز الصلة ، فكما أن أبرز الصفات التي أوجبت المدح للفريق الأول هي ما جاءت في حيّز الصلة في قوله : (للذين آمنوا) كانت ــ أيضاً ــ أبرز الصفات التي أوجبت الذم للفريق الثاني هي ما جاءت في حيّز الصلة في قوله : (للذين لا يرجون أيام الله) ، وهكذا كان لأسلوب المقابلة التعاضد

---

[١] ـ الكشاف ٤ / ٢٨٨ .
[٢] ـ التحرير والتنوير ٢٥ / ٣٤٢ .
[٣] ـ البيت رواه بن جني في الخصائص ولن ينسبه ، (ينظر الخصائص لابن جني ٢ / ٤٧٧ طبعة الهيئة العامة للكتاب الطبعة الرابعة) .
[٤] ـ التحرير والتنوير ٢٥ / ٣٤٢ .

والتآزر مع أسلوب المخالفة في النظم من التعريف إلى التنكير في مدح المؤمنين ، وذم الكافرين .

وقال تعالى : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[١] .
فالاستفهام في الآية للتقريع والتوبيخ لهذه الأمم التي أنكرت أمر البعث ، وهذه " الآية الكريمة من براهين البعث ؛ لأن من لم يعي بخلق الناس ، ولم يعجز عن إيجادهم الأول لا شك في قدرته على إعادتهم ، وخلقهم مرة أخرى لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من البدء"[٢] .
والمتأمل في نظم الآية يجد المخلفة بين لفظ الخلق في قوله : (أفعيينا بالخلق الأول) ولفظ الخلق في (بل هم في لبس من خلق جديد) ، فقد جاء الأول معرفاً ، فقيل : (الخلق) ، وجاء الثاني نكرة فقيل : (خلق) ، وهذه المخالفة من التعريف إلى التنكير ، تكمن وراءها عدة أسرار ، ولطائف ، فقد يكون الغرض منها بيان عظم هذا الخلق الجديد ، والتفخيم من شأنه ، ولذا يقول العلامة الزمخشري : " فإن قلت : لم نكر الخلق الجديد ، وهلا عرف كما عرف الخلق الأول ؟ قلت : قصد في تنكيره إلى خلق جديد له شأن عظيم ، وحال شديد حق من سمع به أن يهتم به ويخاف ، ويبحث عنه ، ولا يقعد على لبس في مثله "[٣] .

---

[١] ـ الآية رقم (١٥) سورة ق .
[٢] ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن ، المؤلف : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي ٧ / ٤٤٥ ، الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .
[٣] ـ الكشاف ٤ / ٣٨٢ .

ويؤكد العلامة أبو السعود ما قاله الزمخشري ، فيقول : " وتنكير خلق لتفخيم شأنه ، والإشعار بخروجه عن حدود العادات ، والإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه ، ويهتم بمعرفته "[١] .

ويحتمل ــ أيضاً ــ أن يكون التنكير في (خلق جديد) للتقليل ، ويكون التعريف في (الخلق الأول) للتعظيم من شأنه ، وذلك للدلالة على أن الله القادر الذي لم يعي بهذا الخلق الأول مع عظمه ، وفخامة شأنه ، كيف يعي بهذا الخلق الجديد ، مع أنه هين وقليل بالنسبة للخلق الأول " ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ؛ لأن الغرض جعله دليلاً على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى ، أي إذا لم يعي ــ تعالى ــ بالخلق الأول على عظمه ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعي به "[٢] .

هذا وقد رأى الطاهر بن عاشور أن تنكير الخلق في قوله : (بل هم في لبس من خلق جديد) للنوعية ، والمعنى على أنه خلق ، ونوع من مخلوقات الله الكثيرة ، وفي هذا دلالة على أنه هين على الله عز وجل يقول : " وتنكير لبس للنوعية ، وتنكير خلق جديد كذلك ، أي ما هو إلا خلق من جملة ما يقع من خلق الله الأشياء ، فما وجه إحالته ؟ ولتنكيره أجريت عليه الصفة بـ (جديد) "[٣] .

---

[١] ـ إرشاد العقل السليم ٨ / ١٢٨ .

[٢] ـ حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لابن المنير الإسكندري ٤ / ٣٨٢ ، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ .

[٣] ـ التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٩٨ .

وقد علل الرازي سر التنكير بعد التعريف في الآية بعلتين : الأولى : أن تعريف الخلق الأول ؛ لأنه معروف ومشهور لكل الناس ، بخلاف الخلق الجديد ، فإنه غير معروف لجميع الناس ، ولذا نكره إشارة إلى جهل بعض الناس به .

والعلة الثانية : التي ذكرها العلامة الرازي : هو أن التنكير في اللفظ فيه إشارة إلى إنكار الكفار لهذا الخلق الثاني من كل الوجوه ، يقول العلامة الرازي : " وفي تعريف الخلق الأول ، وتنكير خلق جديد وجهان : أحدهما : ما عليه الأمران : لأن الأول عرفه كل واحد ، وعُلِمَ لنفسه ، والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ، ولم يعرفه كل أحد ؛ ولأن الكلام عنهم ، وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد . والوجه الثاني : أن ذلك لبيان إنكارهم للخلق الثاني من كل وجه ، كأنهم قالوا : أيكون لنا خلق ما ؟ على وجه الإنكار له بالكلية "[١] .

وهكذا فإن الكلمة في القرآن الكريم معجزة في ذاتها ، فهي تفسح المجال للاحتمالات العديدة ، وتتزاحم فيها النكات البلاغية ولا تتعارض ، وهي تكمل بعضها بعضاً في أداء الغرض المقصود ، والهدف المنشود .

---

[١] ـ مفاتيح الغيب ٢٨ / ١٣٣ .

المبحث الرابع

مخالفة المفردة لنمط سوابقها في الإعراب :

تغيير الإعراب في كلمة بين أمثالها ينبه الذهن إلى وجوب التأمل فيها ، ويهدي التفكير إلى استخراج مزيتها ، وهو من أركان البلاغة[١] ، فالمخالفة في الإعراب فيها حفز للذهن في التفكير في سبب التغيير ، واستخراج المزيه الكامنة فيه ، ونظيره في النطق أن يغير المتكلم جرس صوته ، وكيفية أدائه للكلمة التي يريد تنبيه المخاطب لها ، كرفع الصوت ، أو خفضه ، أو مده بها [٢] .

وهذا التغيير والمخالفة في الإعراب من أساليب العرب في كلامها ، وهو أسلوب معروف بين البلغاء ، ويسمى في علم الإعراب " قطع التابع عن المتبوع ، وضابطه أنه إذا ذكرت صفات للمدح أو الذم خولف في الإعراب تفننـاً في الكلام ، واجتلابًا للانتباه بأن ما وصف به الموصوف ، أو ما أسند إليه من صفات جدير بأن يستوجب الاهتمام ، لأن تغير المألوف المعتاد يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور ومزيد اهتمام "[٣] .

---

[١] ـ تفسير المنار ، المؤلف محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن مثلا علي خليفة الحسيني
٦ / ٥٣ ، الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م .

[٢] ـ إعراب القرآن وبيانه ٢ / ٣٧٨ .

[٣] ـ الجدول في إعراب القرآن الكريم ، المؤلف محمود بن عبد الرحيم صافي ٢ / ٣٥٦ ، الناشر : دار الرشيد ـ دمشق ، مؤسسة
الإيمان ـ بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ .

ومن المخالفة في الإعراب قوله تعالى :(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[١] .

قد مر الحديث عن هذه الآية ، وبيان سبب نزولها[٢] ، والشاهد هنا فيها غير الشاهد الذي سبقت لأجله من قبل ، فموضع الاستشهاد فيها في السابق كان في المخالفة من الفعل إلى الاسم ، وذلك في قوله : (من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم) ، وهنا موضع الشاهد في قوله : (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) .

فالمتأمل في نظم الآية يجد أن لفظة (الصابرين) خالفت ما قبلها في إعرابها ، فقد جاءت هذه اللفظة منصوبة مع أنها معطوفة على لفظة (والموفون) المرفوعة ، ولو سار النظم على ظاهره لقيل : الصابرون عطفاً على (والموفون) ؛ إلا أن النظم القرآني آثر المخالفة الإعرابية ، وذلك لبيان مزية هذه الصفة التي انفردت في نظمها وإعرابها ، وأخذت نمطاً مخالفاً لما قبلها في النسق ، وذلك لأن الصبر صفة مشتركة في كل الصفات السابقة عليها ، فكل عبادة من العبادات وكل عمل من الأعمال

---

[١] - الآية رقم (١٧٧) سورة البقرة .
[٢] - ينظر البحث ص ١٥ .

الصالحة لا بد أن يكون صاحبه متحليًا بصفة الصبر ، حتى يستطيع المداومة على العمل .

قال الراغب " لما كان الصبر من وجه مبدأ الفضائل ، ومن وجه جامعًا للفضائل ، إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ ، ولم يتم حسنها إلا به غير إعرابه ؛ تنبيهًا على هذا المقصد "[١] .

ويشير العلامة البقاعي إلى الخاصية ، والميزة التي انفرد بها الصبر في النظم فيقول : " ولما قطع الوفاء تعظيمًا لدخوله فيما قبل فعل كذلك في الصبر ؛ لذلك بعينه ، فقال : والصابرين ، وفيه رمز إلى معاملته بما كان من حقه لو عطف على (من آمن) لو سيق على الأصل ، قال الحرالي : وفيه إشعار بأن من تحقق بالصبر على الإيثار ، فكان شاكرًا تحقق منه الصبر في الابتلاء ، والجهاد تأييد من الله ــ سبحانه وتعالى ــ لمن شكره ابتداءً بإعانته على الصبر ، والمثابرة انتهاءً ، كأنه لما جاد بخير الدنيا على حبه أصابه الله ببلائها تكرمة له ؛ ليوفيه حظه من مقدوره في دنياه ، فيكون ممن يستريح عند موته ، وبأنه إن جاهد ثبت بما يحصل في نفس الشاكر الصابر من الشوق إلى لقاء الله ــ سبحانه وتعالى ــ تبرؤًا من الدنيا ، وتحققًا بمنال الخير من الله "[٢] . وقد قيد الصبر في الآية بالجار والمجرور (في البأساء والضراء) وفي هذا إظهارًا لفضله ، وميزته في

---

[١] ـ تفسير الراغب الأصفهاني ، المؤلف : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق : محمد عبد العزيز بسيوني ١ / ٣٧٨ ، الناشر كلية الآداب ـ جامعة طنطا ـ الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

[٢] ـ نظم الدرر ٣ / ٨ .

مواطن الشدة ، فالصبر استحق هذه المنزلة من بين الأوصاف المذكورة في الآية ؛ لأنه ارتبط بأشد الابتلاءات التي تحتاج إلى قوة الإيمان ، ولذا يقول النسفي : " (والصابرين) نصب على المدح والاختصاص ؛ إظهارًا لفضله في الشدائد ، ومواطن القتال على سائر الأعمال "[١] .

هذا وقد ذكر الطاهر بن عاشور فائدتين لنصب (والصابرين) " إحداهما عامة في كل قطع من النعوت ، فقد نقل عن أبي علي الفارسي أنه إذ ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن يخالف في إعرابها ، ولا تجعل كلها جارية على موصوفها ؛ لأن هذا من مواضع الإطناب ، فإذا خولف إعراب الأوصاف كان المقصود أكمل ؛ لأن الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنه أنواع من الكلام ، وضروب من البيان . والفائدة الثانية : أن في نصب (الصابرين) بتقدير أخص ، أو أمدح تنبيهًا على خصيصة الصابرين ، وميزة صفتهم التي هي الصبر "[٢] .

هذا وقد ذكر سيبويه هذا الشاهد في باب ما ينصب على التعظيم والمدح فقال : " وإن شئت جعلته صفة فجرى على الأول ، وإن شئت قطعته فابتدأته ، مثل ذلك قوله تعالى : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) إلى قوله : (والصابرين) ، ولو رفع الصابرين على أول الكلام كان جيدًا ، ولو ابتدأته فرفعته على الابتداء كان جيدًا"[٣] .

---

[١] ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، المؤلف : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي ، تحقيق : يوسف علي ١ / ١٥٤ ، الناشر : دار الكلم الطيب ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

[٢] ـ التحرير والتنوير ٢ / ١٣٣ (بتصرف) .

[٣] ـ الكتاب ، المؤلف : عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي ، الملقب بسيبويه ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ٢ / ٦٢

ومن المخالفة في الإعراب ــ أيضا ــ قوله تعالى : (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا)[1] .

فقد جاءت المخالفة الإعرابية هنا في قوله : (والمقيمين الصلاة) ، فقد جاء لفظ المقيمين منصوب مع أنه معطوف على مرفوع ، فما قبله جاء مرفوع فقيل ، (الراسخون) ، (والمؤمنون) ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : والمقيمون ، ولكن النظم القرآني عدل من الرفع إلى النصب ، فقيل : (والمقيمين الصلاة) .

وقد اختلف النحاة في توجيه إعراب (والمقيمين) ، وهي خلافات نحوية لا داعي لسردها[2].

، ٦٣ ، ٦٤ (بتصرف) ، الناشر : مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

[1] ـ الآية رقم (١٦٢) سورة النساء

[2] ـ ينظر للإطلاع على هذه التوجيهات الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين ، المؤلف : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري ، أبو البركات كمال الدين الأنباري ٢ / ٢٧٩ ـ ٢٨٥ الناشر : المكتبة العصرية ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م ، واللمحة في شرح الملحة ، المؤلف : محمد بن حسن بن سباع المعروف بابن الصائغ ، تحقيق : إبراهيم بن سالم الصاعدي ٢ / ٧٣٣ ، الناشر : عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م .

أما اللطيفة البلاغية وراء هذه المخالفة الإعرابية ، فتكمن في إظهار فضيلة الصلاة ، وبيان مزيتها ، وأهميتها ، وزيادة الترغيب فيها ، مع شحن الذهن والسمع ، ولفت الانتباه إلى هذا اللفظ المخالف فيه ، يقول البقاعي : " ولما كانت الصلاة أعظم دعائم الدين ، ولذلك كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر نصبت على المدح من بين هذه المرفوعات ؛ إظهارًا لفضلها ، فقال تعالى : (والمقيمين الصلاة) ، أي بفعلها بجميع حدودها "[١] .

ويبين صاحب إعراب القرآن وبيانه سر المخالفة في الإعراب هنا فيقول : " والمقيمين نصب على المدح بإضمار فعل لبيان فضل الصلاة على ما قاله سيبويه وغيره ، والتقدير : أعني أو أخص المقيمين الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال ، فإنهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان ، والنصب على المدح أو العناية لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة ، والنكتة هنا ما ذكرنا آنفًا من مزية الصلاة "[٢] .

ومن ذلك ــ أيضا ــ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣] .

فهذه الآية كما قال الطاهر بن عاشور تصلح أن تكون استئنافًا بيانيًا ناشئًا على تقدير سؤال يخطر في نفس السامع لقوله : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ

---

[١] ـ نظم الدرر ٥ / ٣٠٥ .
[٢] ـ إعراب القرآن وبيانه ٢ / ٣٧٧ .
[٣] ـ الآية رقم (٦٩) سورة المائدة .

عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)[١] ، فيسأل عن حال من انقرضوا من أهل الكتاب قبل مجيء الإسلام : هل هم على شيء أو ليسوا على شيء ؟ وهل نفعهم اتباع دينهم أيامئذ ؟ فوقع قوله : (إن الذين آمنوا والذين هادوا..الآية) جوابًا لهذا السؤال المقدر . ويجوز أن تكون هذه الآية مؤكدة لقوله : (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم)[٢] ، فبعد أن أتبعت تلك الآية بما أتبعت به من الجمل عاد الكلام بما يفيد معنى تلك الآية ؛ تأكيدًا للوعد ، ووصلا لربط الكلام ، وليلحق بأهل الكتاب الصابئون ، وليظهر الاهتمام بذكر حال المسلمين في جنات النعيم [٣] .

وإذا كانت المخالفة في الآيتين السابقتين جاءت من الرفع إلى النصب ، فإن المخالفة في هذه الآية جاءت من النصب إلى الرفع ، فقد جاء قوله : (والصابئون) مرفوعًا مع أنه معطوف على المنصوب الذي قبله في قوله : (إن الذين آمنوا والذين هادوا) ، وقد جاء هذا اللفظ في سورة البقرة بدون هذه المخالفة ، فقيل : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى) ، ويطرح الرازي سؤالاً فيقول : " فهل في اختلاف هذه الآيات بتقديم الصنوف ، وتأخيرها ، ورفع الصابئين في آية ، ونصبها في أخرى فائدة تقتضي ذلك ؟ "[٤] .

---

[١] ـ الآية رقم (٦٨) سورة المائدة .
[٢] ـ الآية رقم (٦٥) سورة المائدة
[٣] ـ ينظر التحرير والتنوير ٦ / ٢٦٨ .
[٤] ـ مفاتيح الغيب ٣ / ٥٣٧ .

ويجيب الرازي على هذا السؤال الذي طرحه قائلاً : " والجواب : لما كان المتكلم أحكم الحاكمين قلا بد لهذا التعبيرات من حكم وفوائد فإن أدركنا تلك الحكم فقد فزنا بالكمال ، وإن عجزنا أحلنا القصور على عقولنا لا على كلام الحكيم "[١] .

ومن هذا المنطلق الذي أشار إليه الرازي لا بد من البحث عن سر هذه المخالفة الإعرابية في الآية التي معنا ؛ لأن آية البقرة جاءت على طبيعة ما يقتضيه النظم ، وما جاء على طبيعته لا يسأل عن سببه ، وإنما يسأل عن سر ما جاء مخالفاً . والمخالفة هنا في لفظة (والصابئون) ، فقد جاءت مخالفة لما قبلها في إعرابها ، وهي مخالفة قصد منها الاهتمام بشأن هذه الطائفة ، وتمييزها عن غيرها من الطوائف المذكورة في الآية . وقد رأى سيبويه أن الكلام في الآية مبني على التقديم والتأخير وأن لفظة (والصابئون) في الآية مرفوعة على الابتداء ، والخبر محذوف ، والنية به التأخير عما في حيز إن مع اسمها ، وكأن التقدير : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذلك ، والصابئون كذلك[٢] ــ : " فإن قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته : التنبيه على أن

---

[١] ـ المصدر نفسه ٣ / ٥٣٧ .

[٢] ـ ينظر الكتاب ٢ / ١٥٥ ، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، المؤلف عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف ، جمال الدين بن هشام ، تحقيق دكتور : مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ١ / ٦١٧ ، ٦١٨ ، الناشر : دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة السادسة ١٩٨٥م ، وتوضيح المقاصد والمسالك شرح ألفية بن مالك ، المؤلف : أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المصري المالكي ، تحقيق : عبد الرحمن علي سليمان ١ / ٥٣٥ ، الناشر : دار الفكر العربي ـ الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م .

الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان ، والعمل الصالح فما الظن بغيرهم ؟ وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً ، وأشدهم غيًا ، وما سموا صابئين إلا أنهم صبئوا على الأديان كلها "[١] .

وعلى ما ذكر سيبويه فإن في الآية حذفاً للمسند ، لأن تقدير الكلام عنده ، والصابئون كذلك ، **ومنه قول الشاعر :**

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب [٢] .

فتقدير الكلام كما ذكر الخطيب[٣] وقيار كذلك .

إذا فالنظم القرآني أراد بهذه المخالفة في الإعراب الاهتمام بأمر الصابئين وتمييزهم ، وهذا التمييز قصد من ورائه بيان أن الإنسان مهما وصل به الضلال ، والتيه ، ومهما بطش وطغى وسعى في الأرض فسادًا ، فإن ذلك كله يغفره الله ــ عز وجل ــ ، ويتجاوز عنه عند الإيمان بالله عز وجل ، فها هي أعتى الطوائف وأشدها ضلالاً : طائفة الصابئين تتساوى في جزائها بعد الإيمان مع الطائفة المؤمنة الموحدة بالله عز وجل . فعلى الر غم من اختلاف الطوائف داخل الآية (الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى) إلا أن الجزاء في النهاية واحد ، وذلك في قوله : (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

---

[١] ـ الكشاف ١ / ٦٦١ .

[٢] ـ قائله ضابئ بن الحارث البرجمي وهو من قصيدة من الطويل قالها وهو محبوس في المدينة المنورة في زمن عثمان بن عفان ، ينظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، المؤلف : عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد أبو الفتح العباسي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ١ / ١٨٦ ، الناشر : عالم الكتب ـ بيروت

[٣] ـ ينظر الإيضاح ٢ / ١٠٣ ، ١٠٤ .

المبحث الخامس

المخالفة من الإفراد إلى الجمع وعكسه :

من الظواهر الأسلوبية في القرآن الكريم المخالفة من المفرد إلى الجمع ، ومن الجمع إلى المفرد داخل التركيب الواحد ، فقد يعبر النظم القرآني عن معنى من المعاني بصيغة المفرد ، ثم يعبر في نفس النسق عن معنى آخر بصيغة الجمع ، وقد يحدث العكس ، حتى إن بعض الألفاظ المعطوفة بعضها على بعض قد اطرد فيها مجيء المعطوف والمعطوف عليه أحدهما بصيغة المفرد ، والآخر بصيغة الجمع ، كالنور والظلمات ، والسمع والأبصار ، والأرض والسماوات ، وقد اجتهد المفسرون في بيان سر المخالفة والعدول من المفرد إلى الجمع أو العكس داخل نظم الكلام الواحد ولهم في ذلك آراء قيمة ، وتوجيهات عظيمة ، وهذا بخلاف كتب التراث البلاغي فإنها قد وجهت اهتمامها إلى الكشف عن أسرار التعبير بالمفرد داخل التركيب ، وأسرار التعبير بالجمع كل منها على حده .

أما حديث البلاغيين عن أسرار الانتقال من المفرد إلى الجمع وعكسه والمخالفة بينهما داخل السياق الواحد ، فلم أجد لهم فيما قرأت حديثاً مستقلا ً أو مفصلاً يكشف عن هذا الجانب ، وما وجد ما هو إلا إشارات سريعة جاءت أثناء الحديث عن موضوع آخر ، وليست دراسة مستقلة بذاتها ، وذلك كما فعل ابن الأثير عند رجوعه عن رأيه الذي كان يرى فيه أن المؤاخاة بين مباني الألفاظ أمر واجب ، فقد كان يرى أنه يجب على الناظم ،

والناثر أن تسير ألفاظه على نمط ونهج واحد وقد خطأ أبياتـاً بسبب عطف المفرد على الجمع ، وعطف الجمع على المفرد من ذلك قـول مسـلم ابـن الوليد[١] :

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة يثني عليها السهل والأوعار

فقد علق على هذا البيت بقوله : " والأحسن أن يقال السـهل والـوعر ، أو السهول والأوعار ؛ ليكون البناء اللفظي واحد " [٢] . وبعـد تعليقـه علـى الأبيات التي نقدها يرجع عن رأيه في وجوب المؤاخاة بين الألفاظ فيقول : " وقد كنت أرى هذا الضرب من الكلام واجبًا في الاستعمال ، وأنه لا يحسـن المحيد عنه حتى مر بي في القرآن الكريم ما يخالفه ، كقوله تعالى في سورة النحل (أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل) ولو كان الأحسن لزوم البناء اللفظي على سنن واحد لجمع اليمين كما جمع الشمال ، أو أفرد الشمال كما أفرد اليمين [٣] ، وهكذا يسرد ابن الأثير الأمثلة لهذا النوع من الأساليب دون أن يقف بالتوجيه البلاغي لشـاهد واحـد مـن الشواهد القرآنية التي ذكرها ، لأن هدفه فقط هـو الرجـوع عـن رأيـه ، والاستشهاد لنقض ما كان يعتقده .

أولاً : المخالفة من الإفراد إلى الجمع :

قال تعـالى: (ختم خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَـى أَبْصَـارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[٤] .

---

[١] ـ ديوان مسلم بن الوليد ٣١٣ .
[٢] ـ المثل السائر ٢ / ٢٧٩ .
[٣] ـ المصدر نفسه ٢ / ٢٨٠ .
[٤] ـ الآية رقم (٧) سورة البقرة .

فهذه الآية جاءت علة لعدم إيمان الكفار في قوله : () إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)[١] ، فالعلة في عدم الإيمان هي الختم الوارد في الآية .

والختم في الآية جاء على القلوب ، والأسماع ، والأبصار ، والثلاثة من الجوارح ، وقد جاءت القلوب بصيغة الجمع ، وكذلك الأبصار ، أما الأسماع فقد خالفت في نظمها ، وجاءت بصيغة الإفراد .

والسر في هذه المخالفة هو أن السمع جهة واحدة ، فالإنسان يستطيع أن يسمع من خلال اتجاه واحد جميع الأصوات الصادرة من الجهات المختلفة ، فيسمع ما يصدر من جهة اليمين ، وجهة الشمال ، وما يصدر من الخلف والأمام ، هذا بخلاف البصر فإن رؤيته تتعدد بتعدد الجهات التي ينظر ويتجه إليها الإنسان ، فالذي ينظر للأمام لا يستطيع أن يرى من خلفه ، والذي ينظر إلى اليمين لا يستطيع أن يرى ما في جهة الشمال وهكذا ، وقد قدم السمع على البصر ، والسر في هذا التقديم هو " تفضيل السمع على البصر.. كما أن العلوم الحاصلة من السمع أضعاف العلوم الحاصلة من البصر ، فإن البصر لا يدرك إلا بعض الموجودات القريبة المشاهدة بالعين ، والسمع يدرك الموجودات والمعدومات ، والحاضر ، والغائب ، والقريب والبعيد فلا نسبة لإدراك البصر إلى إدراكه "[٢] .

---

[١] ـ الآية رقم (٦) سورة البقرة .

[٢] ـ من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة) عبد الفتاح لاشين ص ٢٠١ ، طبعة دار المريخ (بدون تاريخ) .

وكذلك القلوب فإن أحوالها تتعدد ، ومواقفها تتغير تجاه الأشياء والأحداث ، فهي تختلف وتتفاوت باختلاف الأشخاص .

فلما كانت جهة السمع واحدة ، وجهات البصر متعدد ، وكانت القلوب تتفاوت أفرد السمع ، كما أفرد في قوله تعالى : (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم)[١] وقوله : (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)[٢] .

ويشير الطاهر بن عاشور إلى سر إفراد السمع في الآية وجمع القلوب والأبصار فيقول : " وقد تكون في إفراد السمع لطيفة روعيت من جملة بلاغة القرآن هي أن القلوب كانت متفاوتة ، واشتغالها بالتفكر في أمر الإيمان والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة وبالكثرة والقلة ، وتتلقى أنواعًا كثيرة من الآيات ، فلكل عقل حظه من الإدراك ، وكانت الأبصار ــ أيضاً ــ متفاوتة ــ التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوحدانية في الآفاق وفي الأنفس التي فيها دلالة ، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جمعت ، وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يلقى عليها من القرآن ، فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعًا متساويا ، وإنما يتفاوتون في تدبره والتدبر من عمل العقول ، فلما اتحد تعلقهما بالمسموعات جعلت سمعًا واحدًا "[٣] .

وقيل : وحد السمع لأمن اللبس ، ولأن السمع مصدر في أصله ، والمصدر لا يجمع ؛ لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير فهو لا يحتاج إلى الجمع

---

[١] ـ من الآية رقم (٢٠) سورة البقرة .
[٢] ـ جزء من الآية رقم (٢٣) سورة الملك .
[٣] ـ التحرير والتنوير ١ / ٢٥٦ .

فجيء به على الأصل [١] .، وقيل : الكلام على حذف المضاف ، والتقدير : وعلى حواس أسماعهم[٢] ، وقيل : المعنى وعلى أسماعهم فهو مذكور بلفظ المفرد ومعناه الجمع[٣] . وكلها تعليلات نحوية لا تكشف عن الغاية البلاغية من وراء الإفراد بعد الجمع .

ومن المخالفة من الإفراد إلى الجمع قوله تعالى : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)[٤] .

فهذا مثل جاء في سياق الحديث عن المنافقين ، وقد جاء هذا المثل بعد بيان حقيقة صفاتهم ، وذلك في قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)[٥] إلى قوله : (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)[٦] .

وقد جاء هذا المثل عقب بيان صفاتهم " زيادة في الكشف ، وتتميمًا للبيان ، ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بخفي في إبراز خبيات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل

---

[١] ـ ينظر تفسير النسفي ١ / ٤٥ .
[٢] ـ ينظر الكشاف ١ / ٥٣ .
[٣] ـ ينظر النكت والعيون ، المؤلف : أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الشهير بالماوردي ، تحقيق : السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم ١ / ٨٣ ، الناشر دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .
[٤] ـ الآية رقم (١٧) سورة البقرة .
[٥] ـ الآية رقم (٨) سورة البقرة .
[٦] ـ الآية رقم (١٥) سورة البقرة .

في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشـــاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد وقمع لثورة الجامح الأبي "[١] .

والمتأمل في هذا المثل ، والمدقق في ألفاظه ومفرداته يجد لفظة النور جاءت مفردة فقيل : (ذهب الله بنورهم) وكان سير النظم على نمط واحد يقتضـــي أن يقال : وتركهم في ظلمة تناسبًا وتطابقـــاً مع لفظ النـــور ، إلا أن الـــنظم خالف فعدل من صيغة الإفراد إلى صيغة الجمع فقيل : (وتركهم في ظلمات) .

والسر في هذه المخالفة من الإفراد إلى الجمع هو إظهار شدة الظلمـــة التـــي يعيش فيها المنافقون ، فهم يعيشون في ظلام دامس . وزيادة في إظهار شدة الظلمة لم يكتف النظم القرآني بالجمع ؛ وإنما أضاف إلى ذلك تنكيره وتنوينه فقيل (ظلماتٍ) ثم جاء النفي في قوله : (لا يبصرون) ليضفي مزيدًا مـــن القوة والشدة والتأكيد على هذه الظلمات ، إنها ظلمة يكـــاد يتســـاوى فيهـــا المبصر بالأعمى ، يقول العلامة الزمخشري : " الغرض إزالة النور عـــنهم رأسًا وطمسه أصلاً ، ألا ترى كيف ذكر عقيبه (وتركهم في ظلمـــات) ، والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه ، وكيف جمعها ، وكيف نكرهـــا ، وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها شـــبحان ، وهـــو قوله : (لا يبصرون) "[٢] .

ويؤكد الطاهر بن عاشور هذه العلة في الجمع بعد الإفراد فيقول : " وجمـــع (ظلمات) لقصد بيان شدة الظلمة ، كقوله تعالى : (قل مـــن ينجـــيكم مـــن

---

[١] ـ الكشاف ١ / ٧٢ .
[٢] ـ المصدر نفسه ١ / ٧٤ .

ظلمات البر والبحر)[١] ، وقول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ الظلم ظلمات يوم القيامة[٢] ، فإن الكثرة لما كانت في العرف سبب القوة أطلقوها على مطلق القوة ، وإن لم يكن تعدد ولا كثرة "[٣] .

هذا وفي كلام بن عاشور ما يدل على أن في جمع الظلمات بعد النور إشارة إلى تعدد أحوال المنافقين التي تصلح أن تشبه كل حال منها بالظلمة ، فهي أحوال كثيرة قوبلت بظلمات كثيرة ، يقول " جمع ظلمات أشير به إلى أحوال من أحوال المنافقين ، كل حالة منها تصلح لأن تشبه بالظلمة ، وتلك هي حالة الكفر ، وحالة الكذب ، وحالة الاستهزاء بالمؤمنين ، وما يتبع تلك الأحوال من آثار النفاق "[٤] .

وفي قوله تعالى : (وجعل الظلمات والنور)[٥] جاء النور مفردًا بعد جمع الظلمات ، إلا أن جمع الظلمات هنا في هذه الآية ، وإفراد النور له مغزى آخر مخالف للإفراد والجمع في آية المنافقين السابقة ، لأن الظلمات هنا نعمة من الله عز وجل ، أما الظلمات في آية المنافقين فإنها نقمة من الله عليهم ، فجمع الظلمات هنا ليس مقصودًا به الدلالة على شدة الظلمة التي تنعدم فيها الرؤية كما في الآية السابقة ، وإنما هي ظلمات يبصر فيها الإنسان ، والجمع فيها يدل على الكثرة والتعدد ولا يدل على الشدة والقوة ، كما أن الإفراد في

---

[١] ـ من الآية رقم (٦٣) سورة الأنعام .
[٢] ـ الحديث رواه عبد الله بن عمر في صحيح البخاري ، تحقيق محمد زهير بن ناصر ٢ / ١٢٩ ، الناشر : دار طوق النجاة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .
[٣] ـ التحرير والتنوير ١ / ٣١١ .
[٤] ـ المصدر نفسه ١ / ٣١٢ .
[٥] ـ من الآية رقم (١) سورة الأنعام .

النور يدل على الوحدة ، وإلى هذا يشير الزمخشري فيقول : " فإن قلت لما أفرد النور ؟ قلت : للقصد إلى الجنس كقوله تعالى : (والملك على أرجائها)[١] أو لأن الظلمات كثيرة ؛ لأن ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل ، وظله هو الظلمة بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار[٢] .

ومن ذلك ــ أيضا ــ قوله تعالى : (أم هل تستوي الظلمات والنور)[٣] ، فقد جاء النور مفردًا بعد جمع الظلمات ، والإفراد فيه دلالة على الوحدة ، والجمع فيه دلالة على التعدد والكثرة ، ولذا يقول الشوكاني : " ووحد النور وجمع الظلمة ؛ لأن طريق الحق واحد لا تختلف ، وطرائق الباطل كثيرة غير محصورة "[٤] .

والمتأمل في الآيات المذكورة التي ورد فيها لفظ النور والظلمات يجد أن الظلمات دائمًا متقدمة على النور إلا في آية المنافقين فقد قدم النور على الظلمات فقيل : (ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات)[٥] والسر في ذلك هو أن الظلمة في آية المنافقين حادثة بعد إذهاب النور ، ولذلك أخرت في الآية ، وقدم النور عليها ، وفي باقي الآيات قدمت الظلمة على النور ؛ لأن " عدم المحدثات متقدم على وجودها ، فالظلمة متقدمة في التحقيق على النور فوجب تقديمها عليه في اللفظ "[٦] .

---

[١] ـ من الآية رقم (١٧) سورة الحاقة .
[٢] ـ الكشاف ٢ / ٣ ، ٤ .
[٣] ـ من الآية رقم (١٦) سورة الرعد .
[٤] ـ فتح القدير ٣ / ٨٩ .
[٥] ـ من الآية رقم (١٧) سورة البقرة .
[٦] ـ البحر المحيط ٤ / ٤٢٩ .

ومن المخالفة من الإفراد إلى الجمع قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)[١].

ففي هذه الآية دعوة للتأمل والتدبر في إعمال البصر والفكر في دليل من الأدلة الكثيرة في الكون على وحدانيته وتفرده . " وهو ما خلق الله عليه النظام الأرضي خلقاً ينطق لسان حاله بالعبودية لله تعالى ، وذلك في أشد الأغراض ملازمة للذوات ، ومطابقة للأشكال وهو الظل "[٢] .

ولما كان هذا البرهان القائم في النظام الأرضي دليل واضح على تفرده ــ سبحانه وتعالى ــ بالعبودية كان ترك التأمل والتبصر والاعتبار مدعاة إلى هذا الإنكار والتوبيخ الذي بدأت به الآية ، والذي حمله أسلوب الاستفهام في قوله : (أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء) .

والملاحظ في نظم الآية أنه قد خولف بين لفظة (اليمين) ، ولفظة الشمائل ، فقد جاءت الأولى بصيغة المفرد ، وخالفت الثانية فجاءت بصيغة الجمع ، فقيل : (اليمين والشمائل) ، ولو سار النظم على نمط واحد لقيل : اليمين والشمال ، أو الأيمان والشمائل ، وفي سر هذه المخالفة من الإفراد إلى الجمع أقوال ، منها ما رآه العلامة الزمخشري : " أن اليمين مفرد لفظاً ، إلا أنه جمع في المعنى ، فهو مطابق للشمائل من حيث المعنى ، كما قال تعالى : (ويولون الدبر)[٣] ، والمراد الأدبار "[٤] .

---

١ ـ الآية رقم (٤٨) سورة النحل .
٢ ـ التحرير والتنوير ١٤ / ١٦٨ .
٣ ـ من الآية رقم (٤٥) سورة القمر .
٤ ـ ينظر الكشاف ٢ / ٦٠٩ .

وثانيها : أنه إذا وحد ذهب إلى واحد من ذوات الظلال ، وإذا جمع ذهب إلى كلها ؛ لأن قوله : (ما خلق الله من شيء) لفظة واحد ومعناه الجمع [١] .

ومن العلماء من يرى أن المخالفة هنا جاءت على سنن العرب في كلامها ، فإن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن إحداهما بلفظ الواحد[٢] وهو كثير في القرآن كقوله تعالى : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم)[٣] ، وقوله تعالى : (وجعل الظلمات والنور)[٤] .

ورأى الكرماني أن الشمائل جمع في معنى المفرد ، يقول : " يحتمل أن يراد بالشمائل : الشمال ، وعلى هذا فالشمائل لفظه لفظ الجمع ، إلا أنه مطابق في المعنى لليمين ؛ لأنه بمعنى المفرد "[٥] .

والذي أميل إليه هو أن اليمين جاءت مفردة لتدل على الجهة الواحدة ، أما الشمائل فجاءت جمعًا لتدل على تعدد الجهات ، يقول صاحب الدر المصون : " إذا فسرنا اليمين بالمشرق كانت النقطة التي هي مشرق الشمس واحدة بعينها فكانت اليمين واحدة ، وأما الشمائل ، فهي عبارة عن الانحرافات

---

[١] ـ ينظر معاني القرآن ، المؤلف : أبو ذكريا يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء ، تحقيق أحمد يوسف النجاتي ، ومحمد علي النجار ، وعبد الفتاح إسماعيل الشعبي ٢ / ١٠٢ ، الناشر : دار المصرية للتأليف والترجمة ـ مصر ـ الطبعة الأولى .

[٢] ـ ينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، المؤلف : نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري ، المحقق : الشيخ زكريا عميرات ٤ / ٢٦٦ ، الناشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ .

[٣] ـ من الآية رقم (٧) سورة البقرة .

[٤] ـ من الآية رقم (١) سورة الأنعام .

[٥] ـ الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون ، المؤلف أبو العباس شهاب الدين أحمد ، المعروف بالسمين الحلبي ، تحقيق دكتور : أحمد محمد الخراط ٧ / ٢٣١ ، الناشر : دار القلم ـ دمشق .

الواقعة في تلك الظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة ، فلذلك عبر عنها بصيغة الجمع "[١] .

ثانيًا : المخالفة من الجمع إلى الإفراد :

قال تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)[٢] .

فهذه الآية جاءت ضمن وصايا لقمان لابنه وهو يعظه ، ومن هذه العظات التي وجه لقمان ــ عليه السلام ــ ابنه إليها ما جاء في هذه الآية من القصد في المشي وغض البصر .

وقد جاء هذا التوجيه بعد النهي عن الخلق الذميم في قوله :(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)[٣] .

" فبعد أن نهاه عن الخلق الذميم رسم له الخلق الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال : (واقصد في مشيك)"[٤] .

والناظر في نظم هذه الآية يجد أن لفظ الصوت في المرة الأولى جاء جمعًا ، فقيل : (إن أنكر الأصوات) ، وفي المرة الثانية جاء مفردًا مضافًا إلى

---

[١] ـ الدر المصون ٧ / ٢٣١ ، وينظر البحر المحيط ٦ / ٥٣٨ ، واللباب في علوم الكتاب ١٢ / ٧٠ .

[٢] ـ الآية رقم (١٩) سورة لقمان

[٣] ـ الآية رقم (١٨) سورة لقمان

[٤] ـ الجامع لأحكام القرآن ، المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي ، تحقيق أحمد البردوني ، ودكتور إبراهيم أطفيش ١٤ / ٧١ ، الناشر : دار الكتب المصرية القاهرة .

الجمع فقيل : (لصوت الحمير) ، والسر في هذه المخالفة هي أن الجمع (الأصوات) لم يقصد به صوتاً بعينه ، وإنما قصد به جميع الأصوات على اختلاف أجناسها ، " فجمع لاختلاف أجناس الأصوات ، واختلاف المصوتين ، ووحد في قوله : (لصوت) لما أراد به جنسًا واحدًا من الأصوات "[١] ، وهو صوت الحمير ، " وإنما جمع الحمير في نظم القرآن مع أن صوت مفردًا ، ولم يقل : الحمار ؛ لأن المعرّف بلام الجنس يستوي مفرده وجمعه "[٢] .

وقد آثر النظم القرآني لفظ (الحمير) ؛ " لأن كلمة الحمير أسعد بالفواصل ؛ لأن محاسن الفواصل الأسجاع أن تجرى على أحكام القوافي ، والقافية المؤسسة بالواو أو الياء لا يجوز أن يرد فيها ألف تأسيس ، فإن الفواصل المتقدمة من قوله : (ولقد آتينا لقمان) هي (حميد) ، (عظيم) ، (المأمور) ، (فخور) ، (الحمير) وفواصل القرآن تعتمد كثيرًا على الحركات والمدود والصيغ دون تماثل الحروف ، وبذلك تخالف قوافي القصائد "[٣] .

وفي هذه الجملة المشتملة على المخالفة : (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) تشبيه ضمني مؤكد بإن واللام . فرفع الصوت في الكلام بشبه نهيق الحمير ، وفي هذا دلالة على شناعة وقبح رفع الصوت ، وذلك لما فيه من المنافاة للأدب ، وما فيه من الأذى . وتأكيدًا للتشبيه ، وإظهارًا لشناعة رفع الصوت وقبحه " أتى بالتمثيل مؤكدًا بإن أولاً ، وعزّز هذا التأكيد باللام

---

[١] ـ المصدر نفسه ٧ / ٢٨٠ .
[٢] ـ التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٨ .
[٣] ـ المصدر السابق ٢١ / ١٦٩ .

فصار الكلام خبرًا إنكاريًا ، كأن التمثيل أمر مبتوت فيه لا يتطرق إليه شك "[١] .

وفي مثل هذا التركيب يقول صاحب إعراب القرآن وبيانه : " فقد تدخل إن في الجملة فترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف ، مقطوعًا موصولاً معًا ، واستخدامها على هذا الوجه يحتاج إلى تدبر وروية معًا ، وقد خفي هذا الاستخدام على أفراد العلماء "[٢] .

ومن المخالفة من الجمع إلى الإفراد قوله تعالى : (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)[٣] .

فهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن نعيم المؤمنين الذين أشار إليهم النظم القرآني في قوله : (أولئك المقربون)[٤] ، وفي هذه الآية بيان لشرابهم في الجنة .

وقوله تعالى : (بأكواب) جار ومجرور متعلق بـ (يطوف) في الآية السابقة ، وهي قوله : (يطوف عليهم ولدان مخلدون) .

وقد جاءت الأكواب جمعًا وكذلك الأباريق ، وأفرد الكأس فجاء مخالفاً لما قبله في النظم ، والسر في هذه المخالفة في الإفراد بعد الجمع هو أن الأكواب والأباريق يشترك فيها الشاربون ؛ لأنها تمتلئ خمرًا ، أما الكأس فلا يشترك فيه أكثر من واحد ، وإنما ينفرد كل من الشاربين بكأس خاص به . هذا بالإضافة إلى ما في جمع الأكواب والأباريق ، وإفراد الكأس من

---

[١] ـ إعراب القرآن وبيانه ٧ / ٥٤٦ .
[٢] ـ المصدر نفسه ٧ / ٥٤٦ .
[٣] ـ الآية رقم (١٨) سورة الواقعة .
[٤] ـ الآية رقم (١١) سورة الواقعة .

الدلالة على توافر المشروب وكثرته مع توافر أواني الشـــرب ، فـــالأكواب والأباريق كثيرة ، وهذا ما دل عليه الجمع ، والكئوس كثيـــرة ومتـــوافرة ، وهذا ما دل عليه الإفراد في (كأس) ؛ لأن هذا الإفراد فيه دلالة علـــى أن لكل شارب كأسًا خاصـــاً به لا يشاركه فيه غيره ، ولو كان هناك نقص في الكئوس لاشترك الشاربون فيها كما يشتركون في الأكواب والأباريق ، ولكن لما كانت الكئوس متوافرة انفرد كل شارب بكأسه ، وفي هذا إظهـــار لشـــدة النعيم الذي أعده الله لأهل الجنة ، وفي هذا يقول صاحب اللباب فـــي علـــوم الكتاب " فإن قيل : كيف جمع الأكواب والأباريق وأفرد الكأس ؟ فـــالجواب أن ذلك عادة أهل الشرب فإنهم يعدون الخمر في أوانٍ كبيرة ، ويشـــربون بكأس واحد ، وفيها مباهاتهم لأهل الدنيا من حيث أنهم يطوفـــون بـــالأكواب والأباريق ولا ينتقل عليهم بخلاف الدنيا ، أو يقال : إنما أفرد الكأس لأنهـــا إنما تسمى كأسًا إذا كانت مملوءة ، فالمراد اتخاذ المشروب الذي فيها ،وأفرد الكأس مناسبة لاتصاله بالشرب "[١].

---

[١] ـ اللباب في علوم الكتاب ١٨ / ٣٨٧ .

المبحث السادس

المخالفة بين الحروف :

الناظر في كتب التراث البلاغي نادرًا ما يجد شواهد تكشف عن أسرار المخالفة والعدول في التركيب الواحد من حرف من حروف المعاني إلى حرف آخر ، كأن يعبر بـ (على) ثم يخالف النظم هذا التعبير في نفس النسق ويعبر بـ (في) أو يعبر بـ (ثم) في موضع وينتقل إلى (الفاء) في موضع آخر وهكذا ، أو يعبر بـ (اللام) في موضع وينتقل إلى (على) في موضع آخر ، كل ذلك في نسق التركيب الواحد .

فمع أن البلاغيين قد اهتموا اهتمامًا كبيرًا بمعاني هذه الحروف ، ووجهوا اهتمامهم في الكشف عن معنى الحرف داخل التركيب ، وتحدثوا في الاستعارة التبعية عن الأسرار البلاغية لإقامة حرف مكان آخر [١] إلا أننا لا نجد حديثاً مستقلاً لهم عن أسرار الانتقال في التركيب الواحد من حرف إلى حرف آخر ، فما وجد ما هو إلا إشارات سريعة كما فعل السكاكي عند حديثه عن التقييد بأدوات الشرط[٢] .

هذا بخلاف المفسرين فإنهم بذلوا جهودًا كبيرة في الكشف عن أسرار المخالفة بين حروف المعاني داخل التركيب الواحد ، وهذا ما سيتضح من خلال الآتي :

---

[١] ـ ينظر مفتاح العلوم ١ / ٣٨٠ ، الطراز ١ / ١٣٤ .
[٢] ـ ينظر مفتاح العلوم ١ / ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

قال تعــالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[١] .

ففي هذه الآية " أمر الله تعالى نبيه على جهة الاحتجاج ، وإقامة الدليل على أن الرزاق لهم من السماوات والأرض من هو ؟ ، ثــم أمــره أن يقتضــب الاحتجاج بأن يأتي جواب السؤال ،إذ هم في بهتة ووجمة من الســؤال ، وإذ لا جواب لهم ، ولا لمفطور إلا أن يقول هو الله " [٢] .

وشاهدنا في هذه الآية في هذا الأسلوب الذي سماه الســكاكي بالمنصــف[٣] ،وذلك لما فيه من اللطف في الخطاب عند مواجهة الخصم وهــو قولــه : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) ففــي هــذا الأســلوب تجــد المخالفة بين الحرف (على) و (في) ، فقد جاء الحــرف (علــى) مــع الهدى لإظهار الهدى كأنه شيء مستعلى عليه ، وإظهار المؤمنين في تمكنهم من الهدى بتمكن الراكب المستعلي على الشيء ، وقد جاء هذا على طريــق الاستعارة التبعية في الحرف .

واستخدم الحرف (في) مع الضلال ، فشبه الضلال بالإناء الذي يغمس فيه الضالون ، وفي هذا إشارة إلى تمكن الضلال منهم ، وتمكنهم من الضلال ، وشدة انغماسهم فيه ، وسيطرته عليهم .

وعلى هذا فإن الدونية والانغماس الذي دل عليه الحرف (في) مع الضلال جاء مقابلاً للاستعلاء الذي دل عليه الحرف (على) مع الهدى .

---

١ - الآية رقم (٢٤) سورة سبأ .
٢ - المحرر الوجيز ٤ / ٤١٩ .
٣ - ينظر مفتاح العلوم ١ / ٢٤٦ .

وفي هذه المخالفة بين الحرفين يقول العلامة الزمخشري : " فإن قلت : كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال ؟ قلت : لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث يشاء ، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه "[١] .

ومن المخالفة في الحروف قوله تعالى : (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٢] .

قال بن عباس : نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين منهم جلاس بن سويد ، ومحشر بن خويلد ، وأبو ياسر بن قيس ، فقد اتهم المنافقون الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بقولهم هو أذن والأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع ، كأن جملته أذن سامعه [٣].

والناظر في نظم هذه الآية يجد أن المخالفة هنا جاءت بين حرفي الباء واللام ، وذلك في قوله تعالى : (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) فقد عدل النظم القرآني من الباء في (بالله) إلى اللام في (للمؤمنين) فلم يقل : يؤمن بالمؤمنين كما قيل : (يؤمن بالله) .

---

[١] ـ الكشاف ٣ / ٥٨٢ .

[٢] ـ الآية رقم (٦١) سورة التوبة .

[٣] ـ بحر العلوم ، المؤلف أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي ٢ / ٦٨ ، من موقع المكتبة الشاملة الالكترونية .

والسر في هذه المخالفة الحرفية بين الباء واللام هو أن الإيمان بـــالله غيـــر الإيمان بالمؤمنين ؛ لأن الإيمان بالله معناه : التصديق به واتبـــاع شـــرعه ، وعدم الإشراك به ؛ لذا قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (قل آمنت بالله ثـــم استقم)[١] ، وقال تعالى : (آمن بالله واليوم الآخر)[٢] ، فالفعل آمن ــ دائمًا ــ يتعدى إلى الله عز وجل بالباء ؛ لأنه بمعنى التصديق بالله .

والإيمان للمؤمنين لم يقصد به ذلك ، وإنمـــا قصـــد بـــه الاســـتماع لهـــم ، وتصديقهم فيما يقولون ، ولذلك خولف فيه ، وعدل باللام ، وفي ذلك يقـــول صاحب اللباب : " فإن قيل : لم عدّى الإيمان بالله بالباء وإلى المؤمنين باللام ؟ فالجواب : أن المراد بالإيمان بالله ، المراد منه التصديق الذي هو نقـــيض الكفر ، فعدى بالباء ، والإيمان المعدى إلى المؤمنين معناه الاستماع مـــنهم ، والتسليم لقولهم ، فعدى باللام ، كقوله : (وما أنت بمؤمن لنا)[٣]"[٤] .

هذا وقد رأى بن قتيبة أن الباء واللام في الآية زائدتان ، والمعنـــى عنـــده : يصدق الله ، ويصدق المؤمنين[٥] . وقد رد هذا الرأي صاحب اللباب بقوله : " وهذا مردود ، ويدل على عدم الزيادة تغاير الحروف الزائدة ، فلـــو لـــم يقصد معنى مستقل لما غاير بين الحرفين "[٦] . وقـــد رأى العكبـــري " أن

---

[١] ـ الحديث رواه سفيان بن عبد الله الثقفي والحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وعادل مرشد
وآخرون ٢٤ / ١٤١ ، الناشر مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م .

[٢] ـ من الآية رقم (٦٢) سورة البقرة .

[٣] ـ من الآية رقم (١٧) سورة يوسف .

[٤] ـ اللباب في علوم الكتاب ١٠ / ١٣٠ .

[٥] ـ تأويل مشكل القرآن ، المؤلف : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق السيد : أحمد صقر ص ١٨٣ ، مكتبة التراث ،
الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

[٦] ـ اللباب في عوم الكتاب .

اللام في المؤمنين زائدة للتفرقة بين يؤمن بمعنى يصدق ، وبين يؤمن بمعنى : يثبت الإيمان "[١] .

وسواء ارتضينا ما قاله صاحب اللباب ، أو ما قاله العكبري فإن المخالفة بين الحرفين لم تأت عبثـــاً ، أو زيادة ، وإنما جاءت مقصودة ، ومؤدية لغرض لا يكون بدونها .

ومن المخالفة بين الحروف قوله تعالى :(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**)**[٢].

ففي هذه الآية تتجلى رحمة الله بعباده المؤمنين ، حيث تبين أن مؤاخـــذة الله ــ عز وجل ــ تكون على الأعمال التي في الوسع والطاقة ، وأن الأعمـــال التي فوق الطاقة والقدرة فلا يحاسب عليها المولى عز وجل ، ولا يكلف بها عباده ، يقول صاحب إعراب القـــرآن وبيانـــه : " (لا يكلـــف الله) جملـــة مستأنفة مسوقة لإزالة الحرج عن النفوس ، ولبيان أن المؤاخذة قاصرة على ما في الوسع والطاقة ، فما عداه من خواطر النفس وهواجســـها لا محاســـبة عليه "[٣] .

والنظم القرآني في هذه الآية خالف بين الحرفين المستخدمين في الحســـنات والسيئات ، فاستخدم اللام في جانب الحسنات ، فقيل : "(لها ما كســـبت) ،

---

[١] ـ إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ، المؤلف أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري ٢ / ١٧ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان .

[٢] ـ من الآية رقم (٢٨٦) سورة البقرة .

[٣] ـ إعراب القرآن وبيانه ١ / ٤٤٩ .

واللام للملك "[١] ، وجاءت (على) في جانب السيئات ، فقيل : (وعليها ما اكتسبت) ، وعلى تفيد الاستعلاء[٢] .

وفي استخدام اللام الدالة على الملك في قوله : (لها ما كسبت) دلالة على النفع والخير والرحمة التي تجلبها الحسنات لصاحبها ؛ لأن الملك يعود خيره ونفعه لصاحبه . ، هذا بخلاف السيئات فإنها تجلب الشقاء والعناء لصاحبها ، ففيها ثقل ومشقة ، لذا استخدم معها الحرف (على) فقيل : (وعليها ما اكتسبت) ، فجاء الكلام على طريق الاستعارة التبعية ، فظهرن السيئات ، وكأنها مستعلية عليهم ، كاستعلاء الراكب على المركوب ، فهذه الاستعارة تصور شدة المعاناة ، وقوة الشقاء ، وثقل الحمل الذي تجلبه السيئات لصاحبها .

وفي هذه المخالفة يقول بن عطية : " وجاءت العبارة في الحسنات بـ (لها) من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه ، ويسر بها فتضاف إلى ملكه ، وجاءت السيئات بـ (عليها) من حيث هي أوزار ، وأثقال ومتحملات صعبة ، وهذا كما تقول لى مال ، وعلى دين "[٣] .

وكما خالف النظم بين الحرفين خالف بين الفعلين ، فقيل مع الحسنات : (لها ما كسبت) ، وقيل مع السيئات (اكتسبت)، وذكر العلماء في توجيه ذلك أقوالاً منها : " أن الاكتساب أخص من الكسب ؛ لأن الكسب ينقسم إلى كسبه

---

[١] ـ ينظر همع الهوامع ٢ / ٤٥١ .

[٢] ـ ينظر شرح التصريح على التوضيح ، المؤلف خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي المعروف بالوقاد ١ / ٦٥٢ ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .

[٣] ـ المحرر الوجيز ١ / ٣٩٣ .

لنفسه ولغيره ، والاكتساب لا يكون إلا لما يكسب الإنسان لنفسه خاصة ، يقال : فلان كاسب لأهله ، ولا يقال : مكتسب لأهله "[١] .

ومنها ما ذكره العلامة الزمخشري في قوله : " فإن قلت : لم خص الخير بالكسب ، والشر بالاكتساب ؟ قلت : في الاكتساب اعتمال ، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه ، وأمارة به ، كانت في تحصيله أعمل وأجد ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال "[٢] .

وقيل : اللفظان بمعنى واحد[٣] ، وإنما عبر مرة بكسبت ، وأخرى باكتسبت تفننـاً ، وكراهة إعادة الكلمة بعينها "[٤] ، ومنه قول ذي الرمة :

ومظلم هيال لبغيته ألقى بذلك الكسب مكتسبا[٥] .

ولكن ما أميل إليه من هذه الآراء هو ما رآه العلامة الزمخشري ، لأن القرآن الكريم لا يعدل من حرف إلى حرف أو لفظ إلى لفظ إلا وكان وراء ذلك العدول هدف أسمى ، ونكتة أدق لا يكفي أن يكون التفنن في التعبير توجيهًا كافيًا لها .

وقد قدم الجار والمجرور (لها) على الفعل (كسبت) وتقدم (عليها) على الفعل (اكتسبت)، وهذه التقديم في الموضعين يفيد الاختصاص ، ولذا يقول الشوكاني : " قوله : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فيه ترغيب

---

[١] ـ مفاتيح الغيب ٧ / ١١٨ .
[٢] ـ الكشاف ١ / ٣٣٢ .
[٣] ـ تفسير الواحدي ١٥ / ٤٠٩ .
[٤] ـ التحرير والتنوير ٣ / ١٣٧ .
[٥] ـ ديوان ذي الرمة

وترهيب ، أي لها ثواب ما كسبت من خير ، وعليها وزر ما كسبت من الشر ، وتقدم لها وعليها على الفعلين ؛ ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها ، وعليها لا على غيرها "[١] .

ومن ذلك ــ أيضاً ــ قوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)[٢] .

فهذه الآية تنزل منزلة البيان لإجمال التي قبلها[٣] ، وهي قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين القيم)[٤] وهذا الآية من جوامع الكلم كما قال الطاهر بن عاشور ، وذلك لدلالتها " على ما لا يحصى من المضار في الكفر على الكافر ، وانه لا يضر غيره مع تمام الإيجاز ، وهو وعيد ؛ لأنه في معنى : من كفر فجزاءه عقاب الله فاكتفى عن التصريح بذلك اكتفاءً بدلالة (على) من قوله : (فعليه كفره) ، وبمقابلة حالهم بحال من عمل صالحًا بقوله : (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله)"[٥] .

وكما دلت الآية على أن الكافر لا يضر إلا نفسه ، أفادت أن الإيمان لا ينفع إلا صاحبه ، وذلك في قوله : (ومن عمل صالحًا فلأنفسهم يمهدون) .

وقد عبر النظم القرآني في شأن الكافر بـ (على) ، فقيل (من كفر فعليه كفره) ، وخالف في شأن المؤمن فجاء التعبير بـ (اللام) ، فقيل : (ومن عمل صالحًا فلأنفسهم يمهدون) .

---

[١] ـ فتح القدير ١ / ٣٥٣ .
[٢] ـ الآية رقم (٤٤) سورة الروم .
[٣] ـ التحرير والتنوير ٢١ / ١١٦ .
[٤] ـ من الآية رقم (٤٣) سورة الروم .
[٥] ـ التحرير والتنوير ٢١ / ١١٦ .

وعلى تفيد الاستعلاء واستخدامها مع الكافر دلالة على استعلاء الكفر عليه ، وشموله له ، لدرجة أنه يحمل عبئ وثقل هذا الكفر علـــى كاهلـــه ، ففـــي استخدام (على) دلالة على شدة المعاناة التي يعانيها الكافر بسبب كفره .

واللام تدل على الملك ، والملك فيه دلالة على الرضا ، والمنفعة والراحـــة ، ولذلك استخدمها النظم القرآني مع المؤمن ، فقيل : (ومـــن عمـــل صـــالحًا فلأنفسهم يمهدون) ، وفي هذه المخالفة بين الحرفين يقـــول الطـــاهر بـــن عاشور : " واقتضى حرف الاستعلاء أن الكفر تبعة وشدة وضُرٌّ على الكافر ؛ لأن (على) تقتضى ذلك في مثل هذا المقام ، كما اقتضى اللام في قوله : (فلأنفسهم يمهدون) أن لمجر ورها نفعًا وغنما "[١] .

ففي هذه المخالفة دلالة على النعيم الذي يعيش فيه المؤمن ، والشقاء الـــذي يعيش فيه الكافر ، ومن أجل إظهار هذا النعيم المقابل بالشقاء في الآيـــة لـــم يكتف النظم القرآني بهذا التنوع والمخالفة في صياغة الحروف ، بل خـــالف النظم القرآني بين قوله : (فعليه كفره) ، وقوله : (فلأنفســـهم يمهـــدون) فعبر في شأن الكافر بالضمير المفرد ، وعبر عن المؤمن بضمير الجمـــع ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ومن عمل صالحًا فلنفسه ، وإنما آثر صيغة الجمع وفي هذا تعظيم لشأن المؤمن ، وتحقير من شأن الكافر وعمله ، يقول الشهاب : " وإفراد الضمير باعتبار لفظ (من) لقلتهم وحقارتهم عند الله ، ولذا جمع فيما بعده ، مع رعاية الفاصلة فيه "[٢] .

---

[١] ـ التحرير والتنوير ٢١ / ١١٦ .
[٢] ـ حاشية الشهاب ٧ / ١٢٥ .

وفي هذا الجمع مع المؤمن ، والإفراد مع الكافر ــ أيضـــاً ــ " إشارة إلـــى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته ، أما الغضـــب فمســـبوق بالرحمـــة ، لازم لمن أساء "[١] .

وقد خالف النظم القرآني ــ أيضـــاً ــ بين الفعلين المسندين إلـــى المـــؤمن والكافر ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : ومن آمن كما قيل : (ومن كفر) ، وإنما عدل النظم عن الفعل آمن إلى الفعل عمل فقيل : (ومن عمل صالحًا) ؛ لأن العمل الصالح به يكمل الإيمان فذكره تحريضـــاً للمكلـــف عليـــه ، وأما الكفر إذا جاء ، فلا زنة للعمل معه "[٢] .

هذا وقد يكون العمل الصالح هنا كناية عن الإيمان ، وذلك لما بينهمـــا مـــن اللزوم ، وفي هذا يقول العلامة الشهاب " وقابل الكافر بمن عمل صالحًا دون المؤمن ؛ لأن المراد بالعمل ما يشمل العمل القلبي كالإيمان ، أو لأنه كنايـــة عنه ؛ لأنه لا يخلو عن عمـــــل ما "[٣] .

وهكذا فإن للمخالفة في الآية ــ سواء كانت بين الحرفين (على) و (الـــلام) ، أو بين إفراد الضمير وجمعه بين (فعليـــه) و (فلأنفســـهم) أو بـــين الفعلين (كفر) و (وعمل) دقائق وأسرار ونكـــات بلاغيـــة ــ جـــاءت مقصودة لذاتها داخل نظم الآية .

---

[١] ـ مفاتيح الغيب ٢٥ / ١٠٦ .
[٢] ـ المصدر نفسه ٢٥ / ١٠٦ .
[٣] ـ حاشية الشهاب ٧ / ١٢٥ .

المبحث السابع

المخالفة في الضمائر :

هذا النوع من المخالفة في نظم الكلام الواحد اهتم به البلاغيون اهتمامًا كبيرًا ، وعنوا به عناية فائقة ، وبذلوا في الكشف عن أسراره جهودًا عظيمة ، ودرسوه تحت مصطلح (الالتفات)[١] ، وقد دارت حوله دراسات كثيرة في العصر الحديث ، إلا أنه كان لزامًا علينا أن نشير إليه في هذه الدراسة ولو بشواهد قليلة ؛ لأن هدف البحث رصد أنواع مخالفات المفردة القرآنية لنمط سوابقها في النظم ، ولولا هذا الهدف ما كان البحث في حاجة إلى دراسة مثل هذه المخالفة لكثرة الدراسات التي دارت حول هذا الأسلوب ، ولكن ترك دراسة هذا النوع من المخالفة يعد قصورًا في جانب من جوانب البحث .

فمن المخالفة في الضمائر قوله تعالى : (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)[٢] .

فهذه الآية جاءت في حديث القرآن عن حادثة الإفك ، وفيها " عتاب من الله ــ سبحانه وتعالى ــ للمؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا "[٣] ، ومع أن الظن كان من بعض المؤمنين إلا أن العتاب جاء بصيغة العموم فقيل : (المؤمنون والمؤمنات) " فأسند السماع إلى جميع المخاطبين ،

---

[١] ـ ينظر المفتاح ١ / ١٩٩ ـ ٢٠٤ ، والإيضاح ٢ / ٨٦ ـ ٩٤ .
[٢] ـ الآية رقم (١٢) سورة النور .
[٣] ـ القرطبي ١٢ / ٢٠٢ .

وخص بالتوبيخ من سمعوا ولم يكذبوا الخبر ، وجرى الكلام على الإبهام في التوبيخ بطريقة التعبير بصيغة الجمع ، وإن كان المقصود دون عدد الجمع "[١] .

وفي هذه الآية خالف النظم القرآني بين قوله تعالى : (سمعتموه) ، وقوله : (ظن) ، فالفعلان ماضيان ، ومسندان إلى فاعل واحد ، فالفعل (سمعتموه) مسند إلى ضمير المؤمنين ، والفعل (ظن) مسند إلى اسم المؤمنين الظاهر ، إلا أن الفعل الأول أسند إلى ضمير المخاطب فقيل : (سمعتموه) ، وكان ظاهر النظم يقتضي أن يقال في فعل الظن ظننتم حتى يوافق هذا الفعل ما قبله في الإسناد إلى ضمير المخاطب ، ولكن النظم القرآني خالف ذلك فعدل من ضمير المخاطب إلى ضمير الغيبة فقيل : (ظن المؤمنون والمؤمنات) وأسند الفعل إلى الاسم الظاهر ، فعدل من الضمير إلى الاسم الظاهر . وهذه المخالفة في الآية " التفات قصد به المبالغة ،والتصريح بالإيمان الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شرًا "[٢] .

ولو سار النظم على وتيرة واحدة دون التفات ، وتغيير ، وانتقال من الضمير إلى الاسم الظاهر ، فقيل ظننتم ما أدى هذا الضمير المتروك ما أداه الاسم الظاهر (المؤمنون والمؤمنات) من إظهار صفة الإيمان التي تجعل المؤمن

---

[١] **ـ التحرير والتنوير ١٨ / ١٧٤ .**

[٢] **ـ التسهيل لعلوم التنزيل ، المؤلف : أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الغرناطي ، تحقيق د / عبد الله الخالدي ٢ / ٦٣ ، الناشر : شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ بيروت ، الطبعة الألى ١٤١٦هـ .**

لا يظن في أخيه المؤمن إلا الخير ، ولا يقبل عليه قولاً من الأقوال التي تتهمه في إيمانه ، أو تنقص من قدره .

وفي هذه المخالفة في الآية التي أدت إلى إظهار صفة الإيمان تعريض بأن من صدق هذا الافتراء الكاذب ، وهذا الإفك المبين ، فهو ليس من المؤمنين الراسخين في إيمانهم ، وإنما تسرب إليه بعض خصال النفاق ، لأن من صفات المنافقين أن يظنوا بالمؤمنين الشر ، وأن يصدقوا كل ما يقال عنهم ، بل إنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وقد قال الله تعالى في شأنهم : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) [١] .

وفي هذا العدول والمخالفة من الخطاب إلى الغيبة يقول الطاهر بن عاشور : " فعدل عن الخطاب ؛ للاهتمام بالتوبيخ فإن الالتفات ضرب من الاهتمام بالخبر ، وليصرح بلفظ الإيمان ، دلالة على أن الاشتراك في الإيمان يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه وأخته في الدين ولا مؤمنة ، على أخيها وأختها في الدين قول غائب ولا طاعن ، ثم ينظر في قرائن الأحوال ، وصلاحية المقام ، فإذا سوء إلى من عرف بالخير ظن ذلك إفكاً ، وبهتان ، حتى يتضح البرهان ، وفيه تعريض بأن ظن السوء الذي وقع هو من خصال النفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور ، وقلة بصارة ، فكفى بذلك تشنيعًا ، وهذا توبيخ على عدم إعمالهم النظر في تكذيب قول ينادي حاله ببهتانه ، وعلى سكوتهم عليه ، وعدم إنكاره "[٢] .

---

[١] ـ من الآية رقم (١٩) سورة النور .
[٢] ـ التحرير والتنوير ١٨ / ١٧٥ .

ولما كان هذا الظن الذي وقعت فيه المخالفة من المخاطب إلى الغائب ، أمرًا عظيمًا جاء التنكير في قوله : (خيرًا) ليضفي على هذا الظن مزيدًا من التفخيم والتعظيم ، فهو ظن عظيم ، لأنه يجلب الخير الكثير للمؤمنين والمؤمنات ، ويدفع عنهم كل سوء وشر ، وكل مكيدة وتربص من الأعداء . وهذا التعظيم والكثرة التي دل عليها التنكير في لفظ (خيرًا) قابله التنكير في لفظ (إفك) ففي هذا التنكير تحقير من شأن هذا الإفك ، وبيان أنه لا يؤثر ولا يزعزع عقيدة المؤمنين ، ولا يغير من ظنهم بإخوانهم ؛ لأنهم لا يظنون بهم إلا الخير ، ولا يعتقدون فيهم غير صفة الإيمان ، فهم عندهم فوق كل الشبهات .

ومن المخالفة في الضمائر قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] .

ففي هذه الآية استدلال على وحدانية الله تعالى ، وذلك من خلال التذكير بخلق السماوات والأرض ، (وأم) في قوله : (أمن خلق) بمعنى بل ، فهي تفيد الإضراب ، ولا تفارق الاستفهام . وبهذا الإضراب والاستفهام المستفاد من (أم) يكون النظم القرآني قد انتقل بهذا الإضراب من الاستفهام الحقيقي التهكمي إلى الاستفهام التقريري ، ومن المقدمة الإجمالية ،

---

[1] - الآية رقم (٦٠) سورة النمل .

وهـــــــي قولـــه: (آلله خير أما يشركون)[١] إلى الغرض المقصود وهو الاستدلال "[٢] .

والملاحظ في هذه الآية أن المولى ــ عز وجل ــ قد تحدث عن ذاته بصيغة ضمير الغائب المفرد في قوله : (أمن خلق السماوات والأرض) ، ثم انتقل في السياق نفسه إلى الحديث عن ذاته بصيغة ضمير المتكلم الجمع فقـــال : (فأنبتنا) وكان سياق ظاهر النظم يقتضي أن يقال : فأنبت بصـــيغة الغائـــب المفرد ، كما قيل : (خلق السماوات والأرض) ولكن النظم خالف الظاهر ، وانتقل من ضمير الغائب المفرد إلى ضمير المتكلم الجمـــع ، وفـــي هـــذه المخالفة " تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته ــ عز وجل ــ والإيـــذان بـــأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان ، والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماءٍ واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده "[٣] .

فلما كان خلق السماوات والأرض لا يستطيع أن يدعيه الإنسان ، أو ينســـبه إلى نفسه جاء التعبير في هذا الشأن بصيغة المفرد ، فقيـــل : (أمـــن خلـــق السماوات والأرض) .

وإنبات الزرع قد يدعيه الإنسان وينسبه إلى نفسه ، ويجعله نتيجة لغرســـه ، وكده ، وتعبه ، وحسن رعايته له ، ولا يعلم أنه ينبت بإذن الله تعالى وقدرته ، وأنه مجرد سبب من الأسباب الكثيرة التي يسخرها الله سبحانه وتعـــالى ؛ لإخراج هذه النباتات ، فمن أجل هذا الادعاء الذي يمكن أن تتوهمه بعـــض العقول القاصرة خالف النظم القرآني عند الحديث عن النبـــات ، فقيـــل : (

---

[١] ـ من الآية رقم (٥٩) سورة النمل .
[٢] ـ التحرير والتنوير ٢٠ / ١٠ .
[٣] ـ الكشاف ٣ / ٣٧٦ .

فأنبتنا) بصيغة المتكلم المعظم نفسه ؛ لبيان أن هذا الإنبات لا يقدر عليه إلا الخالق العظيم ، وأن الذي ينسب الإنبات إلى نفسه إنما هو ينسب الأشياء إلى ضعيف عاجز لا يقدر على شيء ، فهو يضع الأشياء في غير مواضعها وينسب الأشياء إلى غير صانعها .

ويبين الطاهر بن عاشور جمال موقع المخالفة في الآية فيقول : " والعدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله : (فأخرجنا) التفات وحسنُه هنا أنه بعد أن حج المشركين بحجة انفراده بخلق الأرض ، وتسخير السماء مما لا سبيل بهم إلى نكرانه ارتقى إلى صيغة المتكلم المطاع ، فإن الذي خلق الأرض ، وسخر السماء حقيق بإن تطيعه القوى والعناصر ، فهو يخرج النبات من الأرض بسبب ماء السماء ، فكان تسخير النبات أثرًا لتسخير أصل تكوينه من ماء السماء ، وتراب الأرض "[١].

وبعد أن بين الطاهر بن عاشور جمال المخالفة في نظم الآية التي معنا يشير إلى تكرار مثل هذه المخالفة في القرآن الكريم ، فيقول :" ولملاحظة هذه النكتة تكرر في القرآن مثل هذا الالتفات عند ذكر الإنبات ، كما في قوله تعالى : (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء)[٢] ، وقوله : (ألم ترى أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفًا ألوانها)[٣] ، وقوله : (أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء

---

[١] ـ التحرير والتنوير ١٦ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
[٢] ـ من الآية رقم (٩٩) سورة الأنعام .
[٣] ـ من الآية رقم (٢٧) سورة فاطر .

ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة)[١] ، ومنها قوله في سورة الزخرف : (والذي نزّل من السماء ماءً بقدرٍ فأنشرنا به بلدة ميتا)[٢] "[٣] .

ففي هذا العدول المتكرر ، والمخالفة عند الحديث عن إنبات الزرع وإخراجه " إظهار للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه "[٤] . وتأكيدًا لنسبة الإخراج لله عز وجل ، ودفعًا لهذا الادعاء والوهم الذي يمكن أن يطرأ على بعض العقول القاصرة جاء النفي في قوله : (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) ، ثم جاء الاستفهام ليؤكد ، ويقرر تفرده سبحانه وتعالى بالوحدانية ، فهو وحده الذي بيده إنبات الزرع وإخراجه ، وهو وحده الذي يستحق العبادة ، وهو وحده الذي يجب أن يعترف جميع الخلق بألوهيته على كل الكون .

ومن ذلك ــ أيضا ــ قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)[٥] .

ففي هذه الآية بيان لنعمة من نعم الله على عباده ، وهي نعمة ركوب البحر ، وبيان لموقف الناس تجاه هذه النعمة ، وقد أسند التسيير في البحر إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ وهو في رأيي إسناد حقيقي ، لان الله هو المسير الحقيقي للناس في البحر والبر . وعلى هذا فإن القصر في قوله : (هو الذي يسيركم

---

[١] ـ من الآية رقم (٦٠) سورة النمل .
[٢] ـ من الآية رقم (١١) سورة الزخرف .
[٣] ـ التحرير والتنوير ١٦ / ٢٣٨ .
[٤] ـ فتح القدير ٢ / ١٦٤ .
[٥] ـ الآية رقم (٢٢) سورة يونس .

) قصر حقيقي ، فقد قصر التسيير في البحر عليه ــ سبحانه وتعالى ــ دون غيره ، وهو من قصر الصفة على الموصوف.

والمدقق في نظم هذه الآية يجد أنها قد بدأت بضمير الخطاب في قوله : (حتى إذا كنتم في الفلك) ، ثم سلك النظم طريقاً آخر في قوله : (وجرين بهم)، ولو سار النظم على نمط سابقه لجاء هكذا : وجرين بكم ، ولكن النظم القرآني آثر المخالفة ، فعدل من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة .

والسر في هذا العدول هو المبالغة في الوصف وبيان الحال ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ، ليعجبهم منها ، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح "[١] لما وصفهم بعد ذلك من كفر النعمة . ففي الآية نعمة عامة وذلك في قوله : (هو الذي يسيركم في البر والبحر) ، ففي هذا الجزء من الآية : " خطاب فيه امتنان ، وإظهار نعمة للمخاطبين . والمسيرون في البر والبحر ، مؤمنون وكفار ، والخطاب شامل فحسن خطابهم بذلك ، ليستديم الصالح على الشكر ، ولعل الكالح يتذكر هذه النعمة فيرجع ، فلما ذكرت حالة آل الأمر في آخرها إلى أن الملتبس بها هو باغ في الأرض بغير الحق عدل من الخطاب إلى الغيبة ، حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي "[٢] .

وقد رأى الإمام الرازي أن الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة دليل المقت ، والتبعيد ، كما أن عكس ذلك قوله : (إياك نعبد) دليل الرضا والتقريب "[٣] .

---

[١] ـ الكشاف ٢ / ٣٣٨ .
[٢] ـ البحر المحيط ٦ / ٣٣ .
[٣] ـ ينظر مفاتيح الغيب ١٧ / ٢٣٤ .

فالمخالفة من الخطاب إلى الغيبة في نظم الآية تلفت ذهن السامع ، وتشحذ همته ، وتحرك خياله ؛ ليرتسم هذا المشهد الذي انقلبت فيه النعمة ، وحسن الحال ــ الذي عبر عنه قوله تعالى : (وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها) ، وذلك " لما يكون لهم في هذه الحالة من الراحة ، والانتعاش والأمن من دوار البحر ، والتمتع بمنظره الجميل في ذلك الهواء العليل "[١] ــ إلى نقمة ، وهي ما عبر عنها قوله تعالى : (جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم) .

ومن المخالفة بين الضمائر قوله تعالى : (فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[٢] .

ففي هذه الآية حث من الله ــ عز وجل ــ للمؤمنين على حسن معاملة اليتامى ، وقد جاء ذلك على طريق السؤال والجواب ، فهو سؤال موجه للنبي صلى الله عليه وسلم. وجاءت الإجابة من الله ــ عز وجل ــ بهذا الأمر الموجه للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ (قل إصلاح لهم خير) ، ثم جاء هذا الشرط ضمن الإجابة : (وإن تخالطوهم فإخوانكم في الدين) .

وقد جاءت المخالفة في النظم القرآني في قوله : (وإن تخالطوهم فإخوانكم في الدين) ، وذلك ؛ لأن النظم السابق قد أخذ صيغة الغائب ، وذلك في قوله : (ويسألونك) ، ولو مضى النظم على سيرته الأولى لقيل : وإن

---

[١] ـ تفسير المنار ١١ / ٢٧٦ .
[٢] ـ من الآية رقم (٢٢٠) سورة البقرة .

يخالطوهم ، وإنما آثر النظم القرآني صيغة المخاطب ، فقيل : (وإن تخالطوهم فإخوانكم في الدين) ، وذلك لما في الخطاب من التحفيز والحث على الاستجابة ، والترغيب في تنفيذ المطلوب والإقبال عليه . ففي هذا الالتفات ، وتلك المخالفة من الغيبة إلى الخطاب اهتمام بشأن اليتيم ، وحسن معاملته ، وحث على العطف عليه ، والتقرب منه ، ومعايشة مشاكله ، والتذكير بالرابط القوي الذي يجب أن يكون حافزًا ، ودافعًا إلى هذه المعاملة الطيبة ، وهو الأخوة في الدين .

يقول أبو حيان : " وحكمة هذا الالتفات ما في الإقبال بالخطاب على المخاطب ؛ ليتهيأ لسماع ما يلقى إليه ، وقبوله ، والتحرز فيه ، فالواو ضمير الكفلاء ، وهو ضمير اليتامى ، والمعنى : أنهم إخوانكم في الدين ، فينبغي أن تنظروا إليهم ، كما تنظروا لإخوانكم من النسب من الشفقة ، والتلطف،والإصلاح لذواتهم وأموالهم "[1] .

ففي التعبير بلفظ (فإخوانكم) زيادة في الترغيب والحث على حسن معاملة اليتيم ، ومخالطته ، وذلك لما في هذه العلاقة من عواطف ومشاعر ، وما تقتضيه من حقوق وواجبات ، فمعاملة اليتيم يجب أن لا تقل عن معاملة الأخ لأخيه ، وذلك لأن إخوة الدين لا تقل شأنًا عن إخوة النسب ، ولذا جاء التقييد في قوله : (في الدين) لبيان أن الإخوة ليست قاصرة على إخوة النسب ، فهذه الإخوة القوية في ترابطها يجب أن تكون دافعًا قويًا إلى حسن معاملة اليتيم خاصة ، وإلى حسن معاملة المسلمين بعضهم لبعض على وجه العموم .

---

[1] - البحر المحيط ٢ / ٤١١ .

الخاتمـــــــــــــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبعونه تذلل الصـــعوبات ، وأصـــلي وأسلم على خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن تبـــع سنته إلى يوم الدين

وبعـــــــــــــد ،،،،،،

فبعد هذه المعايشة مع ظاهرة من ظواهر النظم القرآنـــي وهـــي (**مخالفـــة المفردة القرآنية لنمط سوابقها في النظم**) كان لا بد من رصد النتائج التي توصل إليها البحث ومنها :

أولاً : أن أسلوب المخالفة بين صيغ الألفاظ من الأساليب البلاغية التي لـــم تحظ

بدراسة بلاغية مستقلة في كتب التراث البلاغي ، وما وجـــد مـــا هـــو إلا إشارات في ثنايا الكتب لا تفي بالغرض ، وتحتاج إلى دراسة نظريـــة تلـــم شتاتها ، وتضعها تحت دراسة مستقلة .

ثانيًا : أن أسلوب المخالفة بين صيغ الألفاظ وجه مـــن وجـــوه الإعجـــاز البياني ، فمع أن هذا الأسلوب من أساليب العرب في كلامها إلا أنه جاء في القرآن الكريم في أدق نظم وأحكمه ، فالمخالفة في كل أشكالها وأنواعها لـــم تأت في القرآن الكريم إلا مقصودة لذاتها ، ومؤدية لغرض لا يتأتى بدونها ، ومقتضى حال تطلبه السياق والمقام .

ثالثـــاً : أثبت البحث أن مخالفة المفردة القرآنية لنمط سوابقها في الإعـــراب ليست لحنـــاً ، أو تحريفـــاً كما ادعاه بعض الملحدين والطاعنين في كتـــاب

الله ، والذين تناقلت أقوالهم كتب التفاسير ، ولم نرد في هذا البحث أن نثقله بهذه الأقوال الفارغة . فقد ثبت أن المخالفة في الإعراب جاءت في القرآن الكريم مقصودة لذاتها ولا يمكن العدول عنها ، ومؤدية للطائف ونكات بلاغية لا تتحقق بالعدول عنها.

رابعًا : أكثر السياقات القرآنية التي ورد فيها أسلوب المخالفة هي سياق الحديث عن دلائل قدرة الله ووحدانيته كالحديث عن دلائل قدرة الله في إرسال المطر وإنبات الزرع ، وإحياء الموتى ، وغير ذلك .

خامسًا :ظهر من خلال البحث أن هناك غرضاً عامًا تشترك فيه كل المخالفات على أنواعها وهو الاهتمام والعناية بالمخالف فيه ، وإعطاؤه ميزة وخصوصية عن غيره داخل النظم ، وذلك للفت الانتباه إليه ، وعلى هذا الغرض العام تتفرع أغراض أخرى يحكمها السياق .

سادسًا :أكثر أنواع المخالفات ورودًا في القرآن الكريم هو المخالفة بين الضمائر وهي التي عرفت في اصطلاح جمهور البلاغيين بالالتفات ، وأكثر ورود هذا النوع من المخالفات جاء في سياق الحديث عن دلائل قدرة الله ووحدانيته .

المصادر والمراجع

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، المؤلف : أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت(بدون تاريخ) .
الأصول في النحو : لأبي بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بن السراج تحقيق : عبد الحسين الفتلي ــ مؤسسة الرسالة ــ لبنان ــ بيروت .
أضواء البيان في إيضاح القرآن ، المؤلف : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي ، الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ لبنان ، ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م .
الأطول شرح تلخيص المفتاح للعلامة إبراهيم بن محمد بن عريشاه عصام الدين الحنفي ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، منشورات : محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م .
إعراب القرآن وبيانه ، تأليف : محي الدين بن أحمد مصطفى درويش ، دار الإرشاد للشئون الجامعية ــ حمص سوريه ، دار اليمامة ــ دمشق ــ بيروت ، دار بن كثير ــ دمشق ــ بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤١٥ هـ .
إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ، المؤلف أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان .
الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين ، المؤلف : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري ، أبو البركات كمال الدين الأنباري . الناشر : المكتبة العصرية ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٣م
أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المؤلف : ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .

الإيضاح في علوم البلاغة ، المؤلف : محمد بن عبد الرحمن بن عمر ، أبو المعالي : جلال الدين القز ويني ، المعروف بخطيب دمشق ، تحقيق :محمد عبد المنعم خفاجي ، الناشر دار الجيل ــ بيروت الطبعة الثالثة (بدون تاريخ) .
بحر العلوم ، المؤلف أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي ، من موقع المكتبة الشاملة الالكترونية .
البحر المحيط ، المؤلف : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، تحقيق الشيخ: عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ:علي محمد عوض ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م .
بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، المؤلف : عبد المتعال الصعيدي ، الناشر مكتبة الآداب الطبعة السابعة عشر ١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م .
البلاغة العربية ، المؤلف : عبد الرحمن بن حسن بن حنبكة الميداني الدمشقي ، الناشر:دار القلم ، دمشق ،الدار الشامية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م.
تأويل مشكل القرآن ، المؤلف : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق السيد : أحمد صقر، مكتبة التراث ، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م .
التحرير والتنوير للشيخ / محمد الطاهر بن عاشور ــ طبعة الدار التونسية للنشر ــ تونس ١٩٨٤م .
التسهيل لعلوم التنزيل ، المؤلف : أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الغرناطي ، تحقيق د / عبد الله الخالدي ، الناشر : شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ــ بيروت ، الطبعة الألى ١٤١٦هـ .
تفسير الراغب ، المؤلف : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق : د / محمد عبد الحميد بسيوني ، الناشر : كلية الآداب ــ جامعة طنطا ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م .
تفسير السعدي المسمى : تسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، المؤلف : عبد

الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الناشر : مؤسسة الرسالة ــ الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م .
تفسير القرآن العظيم ، المؤلف : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ، تحقيق ، سامي بن محمد سلامة ، الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م .
تفسير القرآن الكريم لابن القيم المؤلف / محمد بن أبي بكر بن ايوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية ، تحقيق : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية ، بإشراف الشيخ : إبراهيم رمضان ، الناشر : دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .
تفسير المنار ، المؤلف : محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن مثلا علي خليفة الحسيني ، الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٠م .
توضيح المقاصد والمسالك شرح ألفية بن مالك ، المؤلف : أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المصري المالكي ، تحقيق : عبد الرحمن علي سليمان ، الناشر : دار الفكر العربي ــ الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٨م .
الجامع لأحكام القرآن ، المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي ، تحقيق : أحمد البردوني ، ودكتور إبراهيم أطفيش ، الناشر : دار الكتب المصرية القاهرة .
الجدول في إعراب القرآن الكريم ، المؤلف محمود بن عبد الرحيم صافي ، الناشر : دار الرشيد ــ دمشق ، مؤسسة الإيمان ــ بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ .
الجواهر الحسان في تفسير القرآن لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، تحقيق الشيخ : محمد علي معوض ، والشيخ : عادل أحمد عبد الموجود ــ طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .
حاشية الجمل المسماة بالفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، تأليف

العلامة : الشيخ سليمان الجمل، المطبعة العامرة الشرقية بمصر ، ١٣٣٠هـ .
حاشية الشهاب المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي) ، المؤلف : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي ، دار صادر بيروت ، بدون تاريخ .
حاشية محي الدين شيخ زادة محمد بن الدين مصطفى القوجوي الحنفي على تفسير القاضي البيضاوي ، تحقيق محمد عبد القادر شاهين ، منشورات : محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .
حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لابن المنير الإسكندري ، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ .
خزانة الأدب وغاية الأرب ، المؤلف : ابن حجة الأموي : تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله الحموي ، تحقيق عصام شقيو ، الناشر : دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ، دار البحار ـ بيروت ـ الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م .
الخصائص لابن جني ـ طبعة الهيئة العامة للكتاب الطبعة الرابعة .
خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، دكتور / عبد العظيم المطعني ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .
الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون ، المؤلف أبو العباس شهاب الدين أحمد ، المعروف بالسمين الحلبي ، تحقيق دكتور : أحمد محمد الخراط ، الناشر : دار القلم ـ دمشق .
دلائل الإعجاز ، المؤلف : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل ، الجرجاني الدار ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، الناشر : مطبعة المدني بالقاهرة ـ دار المدني بجده ، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .
ديوان تأبط شرًا ، تحقيق عبد الرحمن المسطاوي ، طبعة دار المعرفة ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .
ديوان جرير شرح محمد إسماعيل عبد الصاوي ، مطبعة الصاوي ـ الطبعة الأولى (

بدون تاريخ) .
شرح التصريح على التوضيح ، المؤلف خالد بن عبد الله بن أبـي بكـر بـن محمـد الجرجاوي المعروف بالوقاد ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، الطبعـة الأولى ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م .
شروح التلخيص ، طبعة دار البصائر ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ ــ ٢٠٠٨م .
صحيح البخاري ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر ، الناشر : دار طوق النجاة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .
الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، المؤلف : يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم ، الحسيني العلوي ، الناشر المكتبة العصرية بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، المؤلف : نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسـين النيسابوري ، المحقق : الشيخ زكريا عميرات ، الناشر : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ .
فتح القدير المؤلف : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني ، الناشـر : دار بن كثير ، ودار الكلم الطيب ، دمشق ــ بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .
الفروق اللغوية ، المؤلف : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران العسكري ، تحقيق : محمد إبراهيم مسلم ، الناشر : دار العلم والثقافـة للنشـر والتوزيع ــ القاهرة ــ مصر بدون (تاريخ) .
في ظلال القرآن ، المؤلف : سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي الناشر دار الشـروق ، بيروت ، القاهرة ، الطبعة السابعة عشر ١٤١٢هـ .
الكتاب ، المؤلف : عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي ، الملقب بسيبويه ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الناشر : مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م .
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، المؤلف : أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمـد الزمخشري جار الله ، الناشر : دار الكتاب العربي ــ بيـروت ــ الطبعـة الثالثـة

١٤٠٧هـ .
اللباب في علوم الكتاب ، المؤلف : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد عوض ،دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٨٩م .
لسان العرب لابن منظور ، الناشر دار صادر ـ بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ .
اللمحة في شرح الملحة ، المؤلف : محمد بن حسن بن سباع المعروف بابن الصائغ ، تحقيق : إبراهيم بن سالم الصاعدي ، الناشر : عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م .
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير : ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محرم ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الناشر المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٢٠هـ .
محاسن التأويل ، المؤلف محمد جمال الدين بن محمد سعد بن قاسم الحلاق القاسمي ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .
مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، المؤلف : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي ، تحقيق : يوسف علي ، الناشر : دار الكلم الطيب ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .
مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وعادل مرشد وآخرون ، الناشر مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م .
المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني الهروي ،المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٣٣٠هـ .
معاني القرآن ، المؤلف : أبو ذكريا يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء ، تحقيق أحمد يوسف النجاتي ،ومحمد علي النجار ، وعبد الفتاح إسماعيل الشعبي ،

الناشر : دار المصرية للتأليف والترجمة ــ مصر ــ الطبعة الأولى .
معاني القرآن وإعرابه ، المؤلف : إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج ، الناشر : عالم الكتب ــ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨م .
معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، المؤلف : عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد أبو الفتح العباسي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، الناشر : عالم الكتب ــ بيروت .
مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، المؤلف عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف ، جمال الدين بن هشام ، تحقيق دكتور : مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ، الناشر : دار الفكر ــ دمشق ــ الطبعة السادسة ١٩٨٥م .
مفاتيح الغيب للإمام / فخر الرازي فخر الدين بن العلامة ضياء الدين بن عمر ، طبعة دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م .
مفتاح العلوم ، المؤلف : يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي ، أبو يعقوب ، تحقيق نعيم زرزور ، الناشر دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م .
من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) د / محمد محمد أبو موسى الطبعة الثانية مكتبة وهبة ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٧م .
من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة) عبد الفتاح لاشين ، طبعة دار المريخ (بدون تاريخ) .
المنهاج الواضح للبلاغة ، المؤلف :حامد العوني ، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث .
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة (بدون تاريخ) .
النكت والعيون ، المؤلف : أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الشهير بالماوردي ، تحقيق : السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم ، الناشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان .

همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، المؤلف :عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، تحقيق :عبد الحميد هنداوي ، الناشر : المكتبة التوفيقية ــ مصر .
الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف : أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد علي الواحدي ، تحقيق : صفوان عدنان ، طبعة دار القلم ، الدار الشامية ــ دمشق ــ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .